طايع الديب

جمهوريَّة الضَّحِكِ الأولى

سيرة التَّنكيت السياسيِّ في مصر

جمهوريَّة الضَّحِكِ الأولى

سيرة التَّنكيت السياسيِّ في مصر

طايع الديب

التصميم الداخلي: وسام سعيد

ردمك: 978-977-846-00-00
رقم الإيداع: 2018/0000

مـؤسسـة بتـانـة

القاهرة
34 شارع طلعت حرب
عمارة يعقوبيان - شقة 25
ت: 49570 257 -202+

د بـي
ص ب : 97721
ت: 971543446107+

www.battana.org
@battana.org
@Battana_

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر؛
طبقًا لقوانين حفظ حقوق الملكية الفكرية.

لا يُسمح بإعادة استخدام وطبع أو توزيع أي جزء من مادة الكتاب، مرئيًّا، أو صوتيًّا، أو مطبوعًا، أو إلكترونيًّا، دون إذن مُسبَق من الناشر، طبقًا لقوانين حفظ حقوق الملكية الفكرية.

الآراء الواردة في الكتاب تعبِّر عن رأي مؤلِّفها، ولا تعكس بالضرورة رأي مؤسسة بتانة.

طايع الديب

جمهوريَّة الضَّحِكِ الأولى

سيرة التَّنكيت السياسيِّ في مصر

منشورات بتانة
٢٠١٩

الفهرس

على سبيل المقدِّمة 11

عبد الناصر: كلُّنا في النهاية مجانين 15

عبد الناصر.. الوجه الآخر 25

الإعلامي أصله "هجّاص" 30

نكتة تقود إلى المشنقة 33

رئاسة الجمهورية "سِرِّيٌّ جدًّا" 37

"الوَفِيات" في الصفحة الأولى 40

"مجلس نُكَت" داخل السفارة 45

عصر الضحك العظيم 49

"الرئيسُ المؤْمِنُ" تحت وابِلٍ من النُّكَت 55

هذا "الأضحوكة" رئيسًا لمصر 61

"الممثِّل المنْفَرِد" 63

الموت "وِفْقًا لِلَّائِحَة" 66

الرئيس يشكر "السِّت نعيمة" 69

"أقرع بزبيبة ومراته كسِّيبَة" 72

"البابا شنودة التلمساني" 76

فُكاهات الشيخ الضَّرير 79

ممثِّل على مسرح التاريخ 84

مبارك.. الكفن إذْ "تطلع له جيوب" 87

رئيس حَيِّ مصر الجديدة 93

كذبة "بلاد الإكسلانسات" 95
الرجل "منزوع الهِمَّة" 98
"أغبى واحد فينا رئيس" 104
رجال دولة مبارك 106
كوميديا "الوريث" الذي لم يَرِثْ 111
جامِعُو النُّكَت 114
"الانتخاب غير الطبيعي" 118
التنكيت "على قفا الضابط" 123
النُّكْتَة المصريَّة.. لكنَّه ضَحِكٌ كالبُكاء! 131
نُكَتٌ أَسْقَطَتْ دُوَلًا 139
البؤس داء.. والنُّكْتَة دواء 142
الأبقار المقدَّسة "مَواشٍ عاديَّةٌ" 145
ثاني أقدم نكتة في التاريخ 148
التحشيش والتنكيت "باسم الشعب" 154
العرب يُنَكِّتون "بالمصري" 157
الرئيس "حافظ الأبد" 163
سمكة عبد الناصر تسبح في الفرات 172
كوميديان حرب 175
مصر والجزائر وجهان لـ "نكتة واحدة" 179
"معونة أمريكية" صغيرة 183
مصادر 189

إهداء:

إلى صُنَّاع النُّكتَة المجهولين

لا تحزَنْ وأنتَ على قَيْدِ الحياة

من "كتاب الموتى" الفرعوني

على سبيل المقدِّمة

إذا كان مبارك هو آخر رؤساء مصر الذين عرَّضَتْ بهم أَلْسِنَةُ صُنَّاع النُّكْتَة الحرِّيفة، المجهولين، قبل ظهور "نُكَت الكوميك" في أيَّامنا هذه، فإن عبد الناصر لم يكن أَقَلَّهُم تَعَرُّضًا للتنكيت.

بعد صدور "الميثاق الوطني" الذي كتبه محمد حسنين هيكل بالنيابة عن الزعيم الراحل، وكان بمثابة دستور الحكم وقتها، أراد عبد الناصر أن يعرف رأي الناس في "الميثاق"، فخرج وحدَه متخفِّيًا إلى أقرب قهوة. وهناك رأى أحد أولاد البلد جالسًا بمفرده، فحيَّاه، واستأذنه، ثم جلس بجانبه، وطلب ٢ شاي؛ له ولجليسه، وعزم عليه بسيجارة، فأخذها الرجل شاكِرًا، ورَاحَا يدخِّنان بشغف.

وتبادل الرجلان حديثًا ودِّيًّا مستفيضًا في أحوال الدنيا وتكاليف الحياة. ولمَّا أحسَّ عبد الناصر أن الرجل اطمأنَّ له، سأله: إلَّا قُل لي صحيح.. إيه رأيك في "الميثاق"؟ قال الرجل بحماس: أنضف من "الكليوباترا"!

وخرج السادات في بداية حُكْمِه من بيته في الجيزة ليتمشَّى ليلًا على غير هُدًى، فقادته قدماه إلى غُرزة شاي مُقامَة على الكورنيش، فدخل. وهناك وجد المزاجنجيَّة الغلابة جالسين مُحلِّقين في الدخان الأزرق، طلب جوزة فجيء له بها، وبعد أن شد منها نَفَسًا، أخذ يتكشَّف القعدة من حوله،

فرأى رجلًا بشارب ضخم إلى جانبه. قال له الرجل في ودٍّ بالغ: نوَّرتنا يا أفندي، محسوبك المعلم برعي أبو شفطورة إمبراطور "داير الناحية"... اسم الكريم إيه بقى؟

رد السادات ساهمًا: أنا رئيس الجمهورية.

قال المعلم "برعي": كده من أوِّل نَفَس؟ ليلتنا فُل بالصلاة على النبي!

وذات ليلة من عام ١٩٨٣، ردَّد الكوميديان الراحلُ سعيد صالح على خشبة مسرحية "لعبة اسمها الفلوس" عبارة شعبية كانت متداوَلة في الشارع المصري آنذاك، تختصر سِيَرَ حياة الرؤساء الثلاثة عبد الناصر والسادات ومبارك، على التوالي. قال سعيد صالح: "أمِّي اتجوِّزت ٣ مرات، الأولاني وكِّلْنا المش، والتاني علِّمْنا الغش، والتالت لا بيهش ولا بينِشّ"، فحُكِمَ عليه بالحبس ٦ شهور مع الشغل والنفاذ بتهمة تعاطي الحشيش!

أما الرئيس الأسبق محمد مرسي، فقد كانت السنة اليتيمة التي حكمها هي نفسها نكتة كبيرة، حيث أحاطت خُطبه واجتماعاته الكوميدية -وأشهرها جلسة "سد النهضة"- بكل النظريات السياسية المتعارَف عليها في العالم المتحضِّر، بما في ذلك نظرية الكاتب الإنجليزي "برنارد شو": "إن حُكْمَ أمَّةٍ أسهل من إضحاكها".

وفوق ذلك، لا يمكن اعتبار "الإخوان" في طَوْر سُلْطَتِهم الذي أعادهم إلى أطوار محنتهم، ضمن حكَّام "الجمهورية الأولى" -والأخيرة- لمؤسِّسيها جمال عبد الناصر وصحبه، وهي موضوع هذا الكتاب، بل يمكن اعتبار حكم الجماعة بمثابة "فاصل زمني قصير".

هذا الكتاب محاولة للإلمام بأحوال التنكيت السياسي في مصر، من خلال

عرض يبدأ مع حكم ثورة ٢٣ يوليو، منذ عبد الناصر ورفاقه، مرورًا بالرفيق الضَّال أنور السادات، وعلى خطاه حسني مبارك، وصولًا إلى وقتنا الراهن.

وهو محاوَلة متواضعة مقارَنَةً بما أنجزه كُتَّابٌ كبار في هذا الباب الطريف من أبواب الاجتماع السياسي. محاولة ينقصها الكثير لأسباب "ذاتية وموضوعية" كما يقول المثقَّفون. فأمَّا الذاتية، فَمَرَدُّها التقصير البشري، وأن الكمال لله وحده. وأمَّا الموضوعية فيبسطها -ويُبَسِّطها- شاعرنا العربي الحكيم، وهو القائل: "في فمي ماءٌ... وهل ينطق مَن في فِيهِ ماءُ"؟

عبد الناصر: كلُّنا في النهاية مجانين

"لا بُدَّ أنهم سيجدون الأمر صعبًا، أولئك الذين اعتبروا السُلْطَةَ هي الحقيقة، بدلًا من اعتبار الحقيقة هي السُلْطَة".

جيرالد ماسي (عالم المصريات)

في أواخر عام ١٩٥٦ أجرى الشاعر الراحل كامل الشناوي، رئيس تحرير جريدة "الجمهورية" لسان حال ثورة ٢٣ يوليو، سيد ظرفاء ذلك الزمن- أوَّلَ حوار صحفي أدلى به الرئيس جمال عبد الناصر للصحافة المصرية بعد تولِّيه منصب الرئاسة، ثم اكتفى الزعيم الراحل بعد ذلك باصطفاء حسنين هيكل من دون جموع الصحفيين، لكي يكتب له من الباطن، وينقل ما يريد أن يقوله إلى الناس بقلم ذلك "الأسلوبيان" العظيم.

وكان عبد الناصر يتَّخذ على الملأ مظهر الشخص الجاد المتجهِّم، مثل أي صعيدي في محفلٍ عام. ولكن يبدو أن الشناوي ابن المدينة الطائش كان له رأي آخر، فقد أراد الشاعر أن يلطِّفَ الأجواءَ أثناء الحوار بقفشة ما، فقال لمحدِّثه: "على فكرة يا ريِّس إحنا بلديَّات".

اندهش الرئيس بشدَّة وسأله: "بلديات إزاي، انت من بحري وأنا من الصعيد"، قال الشناوي ضاحكًا: "احنا الاتنين عندنا سُكَّر"!

فوجئ عبد الناصر بهذا الإفِّيه، واحمرَّ وجهه من الغضب، فقد كانت مسألة مرضه من المحظورات، وقال لمحاوره في هدوء: "خلَّص حوارك بسرعة وقوم امشي يا كامل"!

وكما سعى لإخفاء مرضه الذي لم يكن يعرفه إلا الروس الذين يعالجونه، حتى مات فجأة، كان عبد الناصر يخفي أيضًا نَزْعَةً ساخِرةً أصيلة؛ حتى لا ينال المرض أو الضحك من صورته كزعيم قوي الشكيمة في عيون الناس،

وهو الذي كتب في شبابه إلى صديقه حسن النشار "إن المصري يجزع من حفيف ثيابه في وَضَحِ النهار".

وكان مشهورًا عن الرئيس الراحل في بداية حُكْمِهِ أنه مستمعٌ جيِّدٌ، يتمتَّع بصبرٍ يُحسد عليه، يستطيع معه الاستماع لشخص ولو تكلَّم أكثر من ساعتين، بلا مقاطعة أو تململ. وبدل قولهم في مثل هذه الحالات إنه شخص واسع الصدر أو "قلبه كبير" بالتعبير المتداوَل، قال الشناوي إن عبد الناصر "وِدَانُه كبيرة"!

غير أن هذا التعبير الذي يُفهم منه ضمنًا أن عبد الناصر "حمار"، لم يمرَّ بسلام، فقد وصل إلى مسامع الرئيس عن طريق الجهاز الأمني المسيطر، خصوصًا أن الشناوي، الشاعر البوهيمي، البيه الصعلوك، كان من المغضوب عليهم في أول عهد ثورة ٢٣ يوليو، بادِّعاء تَلَقِّيه مع صحفيين آخرين منهم مصطفى أمين وأحمد أبو الفتح وإحسان عبد القدوس "مصاريفَ سريَّةً" من القصر الملكي قبل الثورة، كما كان الشناوي واحدًا من نجوم الأرستقراطية المصرية في العهد البائد، وهو التعبير المعتمَد وقتَها لوصف ما قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وحينما تبيَّنَت براءة الشاعر من تلك التهمة المشينة، كلَّفَه عبد الناصر برئاسة تحرير جريدة "الجمهورية" الناطقة باسم الثورة، كَنَوْعٍ من رَدِّ الاعتبار.

غير أن الشناوي لم يكن بالرجل سهل الترويض، ليس باعتباره معارِضًا محتمَلًا لحُكْمِ الضُّبَّاط، فهو بحكم تكوينه الأقرب إلى الفنان أقلُّ وَزْنًا من ذلك، بل لكونه ابن نكتة، هوايته الأثيرة هي التشنيع وتدبير المقالب وتأليف

النكت بلا هدف، سوى السخرية من السياسيين ونجوم مجتمع ما قبل الثورة من باب "الضحك للضحك".

استمرَّ الشناوي، بمعاونة صديقه المشاغب "الولد الشقي" محمود السعدني، والكاتب والمخرج السينمائي عبد الرحمن الخميسي، في إطلاق التشنيعات والنكات المحبوكة باحتراف ضدَّ سادة مجتمع ما بعد الثورة، بمن فيهم كبار المسؤولين والوزراء من رجال ونساء الحكم.

وكانت مَنَصَّةُ التأليف هي "قهوة عبد الله" الكائنة في قلب ميدان الجيزة وقتها، حيث سهر هذا الثلاثي المشاغب الليالي يستقصون المفارقاتِ الساخرةَ في مجتمع الثورة الجديد، ويُنَكِّتون ويُشَنِّعون ضدَّ المشاهير وكبار المسؤولين، حتى إنهم كانوا يبيعون النُّكَتَ البريئة لفنَّاني المنولوجات المعروفين آنذاك، ومنهم أحمد غانم وأحمد الحداد وغيرهما.

وضَجَّ قادة الثورة بالشكوى مرارًا لـ "عبد الناصر" من نُكَتِ الثُّلاثي الضاحك، خصوصًا أن جمهور "قهوة عبد الله" كان بمثابة إذاعة متنقِّلَة، فصدر فجأة قرار بنقل "الخميسي" ضمن صحفيين آخرين من عملهم بجريدة "الجمهورية" إلى شركة "باتا" للأحذية، بدعوى أنهم من أعداء الثورة، فقال له الشناوي مواسيًا بعد نقله: متزعلش يا "خميسي"... مكسيم جوركي بدأ حياته "جزمجي" وانتهى كاتب عظيم، وانت بدأت حياتك كاتب وانتهيت "جزمجي"!

وتعرَّض السعدني بسبب قعدات "قهوة عبد الله" ومشاغبات سياسية أخرى لعقاب أكثر قسوةً، فاعتُقِلَ الرجل أعوامًا طويلة مع الشيوعيين أعضاء التنظيمات اليسارية السرية، وعلى رأسها الحركة الوطنية للتحرُّر الوطني

"حِدِتُّو"، الذين جرى إيداعهم بالآلاف في سجن "المحاريق" الصحراوي أعالي صحراء منطقة الواحات. وكانت تهمة "السعدني" هي الانتماء لتنظيمٍ ماركسيٍّ لا وجودَ له، سمَّاه الكاتب الراحل اسمًا حركيًّا هو "تنظيم زمش" اختصارًا لاسمه الحقيقي: "زي ما انت شايف".

أمَّا الشناوي نفسه فقد تمَّ اصطياده في مناسبة عامَّة حضرها أدباء وصحفيون وسياسيون كبار، كان من بينهم طه حسين ومحمد التابعي وتوفيق الحكيم ويوسف إدريس وإحسان عبد القدوس، وسواهم، حين قال عبد الناصر فجأة لـ "الشناوي" بصوت سمعه الجميع: ما تقول لنا آخر نكتة يا كامل!

وتحرَّج الشناوي من التنكيت في هذا المحفل العام، خصوصًا أنه ليس من اللياقة -ولا من الحكمة- السخرية من النظام أمام رأس النظام، فامتنع. لكن عبد الناصر شجَّعه، فحكى نكتة بايخة أقرب إلى التشنيعة عن وزير تموين مثقَّف، كان يحضر ندوة عن قضية "ترشيد الاستهلاك"، ونسي مدير مكتبه إحضار الكلمة المعدَّة خصِّيصًا للندوة، فأمسك الوزير الميكروفون في ارتباك بالغ، وراح يفتِّش في ذهنه عن شيء يصلح لهذه المناسبة، فلم يجد، فقال: أيَّتها الإخوة المواطنون، إن المواطن المثالي هو ذلك المواطن الرشيد الذي يعرف أهمية الترشيد، إنه المواطن الذي لئن يُطعن في الإسلام، لأهون عليه من الطَّعْنِ في الرغيف الثاني، ولا شقُّ عصا الدين، أشقَّ عليه من شقِّ الرغيف الثالث!

وابتسم بعض الحاضرين على سبيل المجاملة، بينما التزمت الغالبية الصمت حذرًا؛ خشيةَ أن يكون هذا فخًّا من نوعٍ ما. وبنظرات نارية مشفوعة بصمت رهيب (مع الاعتذار للشاعر)، قال عبد الناصر للشناوي: يعني دي آخر نكتة يا كامل؟

وفهم الشناوي الرسالة على الفور، فحبس نفسه في منزله أكثر من شهرين، لا ينزل إلى العمل، كما امتنع تمامًا عن "قهوة عبد الله"، ولم يَعُدْ حتى يستقبل أحدًا من أصدقائه المشاغبين في بيته. وهو الرجل الذي قضى حياته في السهر والكلام. وظلَّ الرجل على هذه الحال حتى تشفَّع له عبد الحليم حافظ عند عبد الناصر، فأرسل الأخير للشناوي المذعور رسالة شفوية مُؤَدَّاها: قُلْ ما شِئْتَ في قعداتك إلَّا التشنيع على الضُّبَّاط وتأليف النُّكَت!

ومن الغريب أن مصطفى أمين الذي حُكم عليه بالسجن "أشغال شاقَّة مؤبَّدة" عام ١٩٦٥ بتهمة التجسُّس لحساب أمريكا، وأُفرج عنه بعد ٩ سنوات في عهد السادات، كان واحدًا ممَّن يتولَّون حَكْيَ النُّكَت المتداوَلة بشكل عام في الشارع المصري لـ "عبد الناصر" بناء على طلبه؛ ذلك أن مصطفى أمين اشتهر في بداية حياته الصحفية باعتباره كاتبًا ساخرًا يكتب تحت اسم مستعار، هو "مصمص"، وكان عبد الناصر يطلب منه جَمْعَ كل النُّكَت السياسية السائرة، بما ذلك النِّكات البذيئة التي تستهدفه هو شخصيًّا كقائد للثورة بالاسم، على اعتبار أنها شكل من أشكال "المعارضة الشعبية السرية".

وهناك وقائع كثيرة ذات دلالة على أن عبد الناصر الجاد الصارم، كان يستنكر "الضحك العام"، سواء جاء في شكل قفشة ضاحكة على الملأ، كما حدث مع الشناوي، أو في شكل نكتة سياسية.

وهذه الواقعة بطلها هو الكاتب الفكاهي فكري أباظة، أحد ظرفاء زمانه، ففي مايو ١٩٦٠ عقد الزعيم الراحل اجتماعًا رسميًّا مع رؤساء تحرير الصحف والمجلات الكبرى، وتطرَّق الحديث إلى عمل إدارة الرقابة على

المطبوعات التي كان تابعة لوزارة "الإرشاد القومي"، وهي الوزارة التي اقتبس فكرتها الكاتب والسياسي الراحل فتحي رضوان من "وزارة الدعاية" النازية. ومنعت "الرقابة" عشراتِ الصحف التي كانت تصدر قبل الثورة، والتي تمَّت مصادرتها بدعوى أنها ناطقة بلسان الرجعيين أعداء الثورة ومدفوعة منهم لمهاجمة الحكم الجديد، أو أنها صادرت نفسها بنفسها، فتوقَّفَت بِمَحْضِ إرادتها؛ لأن الزمن السياسي تغيَّر.

وأبلغ عبد الناصر رؤساءَ التحرير خلال الاجتماع أنه أعطى تعليماته للرقيب العسكري بإفساح "هامش حرية كبير" لمختلف الآراء السياسية، بما في ذلك المعارِضة منها، وأمره ألَّا يقرأ مقال فكري أباظة، رئيس تحرير مجلة "المصور" وقتها، أو يشطب منه حرفًا واحدًا مهما كتب. ثم سأل الرئيس الكاتب تأكيدًا لما قال: هو الرقيب شطب لك أي كلمة يا فكري؟

ويبدو أنه كان يتوقَّع أن تكون الإجابة بـ "لا، لم يحدث"، غير أن فكري أباظة قال ساخرًا بطريقته: "يااااه يا ريس! دا انا بكتب بدل المقال مقالين وتلاتة وأحيانًا أربعة، وبابعتهم كلهم عشان السيد الرقيب يوافق على واحد منهم، زي ما اكون بيَّاع لب"!

وضحك الجميع إلَّا عبد الناصر الذي بدا عليه الغضب من هذا الرد الفكاهي الصريح، فلم يعقِّب، ولم يَتَلَقَّ فكري أباظة أية دعوة لحضور اجتماعات رؤساء التحرير حتى وفاته.

عبد الناصر.. الوجه الآخر

غير أن عبد الناصر الذي لا يعرفه أحد، شيء آخر تمامًا غير ذلك الرجل الجاد الصارم، فقد كان -في الحقيقة- أقلَّ تَحَفُّظًا وأخفَّ ظِلًّا، لا سيَّما في الاجتماعات المغلقة وفي جلسات الأصدقاء والمناسبات الصغيرة.

حكى الفنان الراحل أحمد مظهر أن زملاء دفعة عام ١٩٣٨ من خرِّيجي "الكلية الحربية"، قرَّروا سنة ١٩٦٥ أن يحتفلوا بمرور ٢٧ عامًا على تخرُّجهم، فأقاموا احتفالًا حضره جميع خرِّيجي الدفعة، ودَعَوا إليه زميلهم عبد الناصر، ولبَّى الرجل الدعوة ببساطة.

ووصل الرئيس في موكبه البسيط، وصافح زملاء دفعته الذين كانوا مصطفِّين في استقباله، واحدًا تلو الآخر. وحين جاء الدور على أحمد مظهر الذي كان في قمَّة شهرته كممثِّلٍ من نجوم الصف الأول، صافحه عبد الناصر قائِلًا: والله يظهر انت الوحيد الِّلي "فلحت" فينا يا مظهر!

وكان الكاتب إحسان عبد القدوس أحد أصدقاء عبد الناصر المقرَّبين قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢، منذ أن كتب "إحسان" سلسلة مقالاته عن الأسلحة الفاسدة الخارجة من معارك الحرب العالمية الثانية، والتي حارب بها الجيش المصري في فلسطين، وتسبَّبَت في "نكبة" ١٩٤٨، وكانت هذه المقالات أحد أسباب التأييد الشعبي لثورة ٢٣ يوليو عند قيامها.

غير أن تلك الصداقة، والمقالات، لم تمنع اعتقال "إحسان" بأمر شخصي من عبد الناصر؛ بسبب مقاله الشهير في عدد مجلة "روز اليوسف" الصادر يوم ٢٢ مارس ١٩٥٤، بعنوان "الجمعية السرية التي تحكم مصر". وهو المقال

الذي لمَّح فيه "إحسان" إلى أن معظم "الضباط الأحرار" كانوا أعضاء قدامى في جمعية "الحرس الحديدي" التي أسَّسَها ضُبَّاطٌ تابعون للقصر الملكي وفق أساليب نازية أيام الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥)، ثم أصبحت أحد أكثر الجمعيات السرية نفوذًا ودمويَّةً في تاريخ مصر.

وكانت هذه الجمعية المشبوهة تضمُّ بين صفوفها بعضًا من قادة الثورة، منهم: أنور السادات، زكريا محيي الدين، صلاح سالم، حسن عزت، مصطفى كمال صدقي، عبد المنعم عبد الرؤوف، حسين صبري، وآخرين من الضُّبَّاط الأقل شُهْرَةً.

ويوم خرج إحسان عبد القدوس من السجن بعد "حبسة تأديب" قصيرة لم تتجاوز ٣ شهور قضاها مُعْتَقَلًا بلا محاكمة في السجن الحربي، أُخِذَ عليه "تَعَهُّدٌ مكتوب" بالامتناع عن الكتابة في السياسة مستقبلًا، واتَّصل به عبد الناصر قائلًا: "حمد الله ع السلامة يا إحسان... انت خرجت امتى؟".

ردَّ "إحسان": "لسَّه خارج إمبارح يا سيادة الريِّس"، فضحك عبد الناصر قائلًا: "مكنتش عارف إنك خِرِع أوي كده يا إحسان، كنت بتقولي (يا جمال) من ٣ شهور بس، دلوقت بقيت تقول لي يا سيادة الريّس"!

وروى محمود الجيار أنه بعد نجاح حركة ٢٣ يوليو، التي سمَّاها طه حسين ثورة، بدأ عبد الناصر يعقد اجتماعات للأعضاء الأصغر سِنًّا في تنظيم الضباط الأحرار؛ بغرض استطلاع آرائهم في أمور الدولة وشؤون الحكم.

وكان شمس بدران "يتخصَّص" خلال هذه الاجتماعات في الحديث عن وزارة الزراعة، ويتطرَّق في كل مرة إلى حجم الفساد المهول فيها، ومدى تخلُّفها عن العصر؛ بحُكْمِ أن والد "شمس" كان يعمل رئيس قسم في الوزارة.

وخلال أحد هذه الاجتماعات، شرع شمس بدران في الكلام، وما إن بدأ حتى عاجله عبد الناصر قائِلًا: "دا تالت اجتماع نعمله ونتكلم فيه عن وزارة الزراعة بس، واختصارًا لوقتنا أنا باقترح إننا نعيِّن عم (علي بدران) وزيرا للزراعة ونستريَّح"!

وكان الوزراء في الحكومة التي تشكَّلت برئاسة عبد الناصر في بداية عهد الثورة، يبالغون في إظهار "تقشُّفَهم"؛ تماشيًا مع مفردات العصر الاشتراكي الجديد، فكانوا يعقدون اجتماعات مجلس الوزراء معظم النهار، ويأخذون استراحة قصيرة في منتصف اليوم يأكلون خلالها سندويتشات فول وطعمية، ويفاخر أغلبهم بأنهم حضروا إلى مقرِّ الحكومة راكبين "الترماي" مع عامَّة الشعب.

وملَّ عبد الناصر من هذه الأحاديث المُدَّعاة، فقال لهم: "خلاص، عرفنا إنكم اشتراكيين لمدة ٨ ساعات في اليوم، يعني وردية واحدة بس"!

وكان الرئيس الراحل حاضِرَ النُّكْتَة، حاضِرَ البديهة خلال لقاءاته مع رؤساء الدول أيضًا، فقد التقى عبد الناصر مع الزعيم الكوبي الأشهر فيدل كاسترو على هامش اجتماعات الأمم المتحدة في نيويورك ذات يوم. وفي نهاية اللقاء الرسمي أهدى "كاسترو" إلى عبد الناصر صندوقًا خشبيًّا مُغَلَّفًا بجلد التماسيح، وعندما فتحه لم يجد فيه شيئًا، ووجده فارغًا تمامًا، فقال لـ "كاسترو": "كنت فاكر إنه مليان سيجار".

شعر الرجل بشيء من الحرج، فقال له: ستصلك ١٠ صناديق سيجار خلال أسبوع على الأكثر، لكن يبدو أنني أخطأت بإهدائك جلد التماسيح، فمن المؤكَّد أن لديكم المئات منها تعيش في نهر النيل.

قال عبد الناصر:

- عندنا في مصر ٣ تماسيح فقط.

سأله كاسترو مندهشًا: كيف تمكَّنْتَ من إحصائها؟

- لأنها جميعًا تعيش في حديقة الحيوان!

وفي قمَّة باندونج لدول "عدم الانحياز" التي عقدت عام ١٩٦٦، طلب عبد الناصر من صديقه "شوين لاي" رئيس وزراء الصين أن يدعِّم الاقتصاد المصري النامي بشراء القطن، محصول مصر الأول وقتها، واختتم كلامه للزعيم الصيني ووفده بلاده قائلًا: "لو فخامتكم طلبتوا من الشعب الصيني يطوِّل هدومه ٥ سنتي بس.. هتشتروا المحصول لمدة ٣٠ سنة جايَّه"!

وهذه واقعة أخرى، في أبريل ١٩٧٠، بعد تعيين سعد زايد وسامي شرف وحسنين هيكل وزراء في حكومة عبد الناصر الأخيرة، راح محمود الجيار، سكرتير الرئيس الراحل، يبدي سخطه الشديد لكل من يقابله بسبب عدم تعيينه وزيرًا. وكان الجيار يسخر من الحكومة على الملأ ويسمِّيها "حكومة منه فيه".

ووصلت هذه الأقاويل إلى الرئيس، فاستدعاه إلى مكتبه واستفسر منه عن سر غضبه، خصوصًا أنه كان صديق عمره. وبعد أن دخل طلب منه الجلوس، ثم سأله: "زعلان ليه يا محمود؟"، تردَّد الجيار قليلًا ثم قال: "إن خدمتي الطويلة لوطني وإخلاصي للسيد الرئيس تؤهِّلانني لأن أكون وزيرًا".

قال له عبد الناصر: "إن مؤهِّلات تعيين الوزير تشمل مسائل ومقوِّمات أكبر بكثير مما تظن يا جيار، وعلى العموم هاسألك سؤال محدد لو جاوبته تبقى تستحق تكون وزير".

ابتسم الجيار ابتسامة الواثق بنفسه، فسأله: "قُل لي يا محمود، ما هي

عاصمة دولة جامبيا؟ لو عرفت تجاوب هطلَّع قرار جمهوري بتعيينك وزير بكره الصبح".

ولم يعرف الجيار الإجابة بالطبع، فانطلق عبد الناصر ضاحِكًا حتى أوشك أن يقع من الكرسي، وخرج صاحبنا صاغِرًا، ولم يفاتحه في مسألة الوزارة بعد ذلك أبدًا!

ويؤكِّد الصحفي الراحل حلمي سلَّام، أحد المقرَّبين لرجال الثورة، أن الزعيم الراحل كان يتعامل بـ "خِفَّة عجيبة" مع أخطر الأزمات السياسية، وهي أزمة "الديمقراطية" التي انتصر لها فريق الرئيس الأسبق محمد نجيب وخالد محيي الدين ويوسف صديق، فقد شهدت القاهرة ذات يوم من عام ١٩٥٤ واحدةً من أغرب المظاهرات بتدبير من عبد الناصر وفريقه، وهي المظاهرات التي هتفت لأول وآخر مرة في تاريخ مصر: "تسقط الديمقراطية... تسقط الحرية".

قال "سلام": "في الشهور الأولى للثورة، أذكر أن عبد الناصر تحدَّث معي على انفراد بشأن الرئيس محمد نجيب، وكان الأخير يستقلُّ عربةً مكشوفة ويطوف بها وسط الثكنات العسكرية، ويقوم أثناء ذلك بتحية الجنود والضباط المصطفِّين على الجانبين، فقال لي عبد الناصر ببساطة مذهلة: هو فاكر نفسه إنه بالتصرُّف ده هيملك العساكر ويكسب القوات المسلحة لصفه؟ طيب خلِّيه يعمل اللي هو عايزه، واحنا هنعمل ثورة على الثورة"!

الإعلامي أصله "هجّاص"

عاشت النكتةُ السياسية مجدَها تحت حكم ٢٣ يوليو، فقد خرج الضباط الشُّبَّان بقيادة عبد الناصر من ثكناتهم مؤقَّتًا في تحرُّكٍ عسكري كان الهدف منه "إصلاح أنفسهم"، أي إصلاح أحوال الجيش، فوجدوا أنفسهم فجأة في قمة السلطة، وتحوَّل الوضع المؤقَّت بمرور الوقت إلى وضع دائم.

وبحث قادَةُ الثورة عن سَنَدٍ قويٍّ لحُكْمِهم، ووجدوا ضالَّتهم في الإعلام، فأجادوا التعامُلَ مع الإذاعة بعد إطلاق إذاعة "صوت العرب" سنة ١٩٥٣، ثم بدء البث التليفزيون عام ١٩٦٠ من مبنى "ماسبيرو" الذي كان الوسيلة الإعلامية الوحيدة في البلد، المسموعة في العالم العربي كله. ولم يكن هناك صوت يعلو فوق "صوت المعركة" التي انتهت -مع ذلك- بهزيمة ١٩٦٧.

ويحلل طارق المهدوي، كبير الإعلاميين في رئاسة الجمهورية سابقًا -أي أنه شاهد من أهلها- ظاهرةَ وسائل الإعلام منذ ثورة ٢٣ يوليو حتى الآن، بقوله: "اختار الشعبُ المصريُّ قبل ظهور الإعلام بعضَ أبنائه من ذوي خِفَّة الدم واليد وفهلوة الحديث، ليمارسوا الإعلام الشعبي البينيَّ المتبادَل، ومنحهم اسم (الهجَّاصين)، حيث كان يتمُّ استئجارَ (الهَجَّاص) من قِبَل أصحاب السلع والمحلات التجارية ومُقَدِّمي الخدمات والأنشطة المختلفة وأهل المناسبات السعيدة والحزينة على السواء؛ لإعلام الجماهير بما لدى هؤلاء وأولئك، عبر الحركات الجسدية الراقصة والنداءات المحبَّبة للعوام، والتي كان أشهرها نداء: بص بص بص... من ده بُكرة بِنُص".

يضيف المهدوي: "ولم يتم إطلاق اسم (إعلامي) بدلًا من (هجَّاص) لوصف نفس المسمَّى الوظيفي رسميًّا إلَّا مع إنشاء (مصلحة الاستعلامات)

عام ١٩٥٤. [هيئة الاستعلامات حاليًا]، بينما ظهر اسم (المذيع) عقب تأميم شركة ماركوني الإيطالية للصوتيات، وتحويلها إلى الإذاعة المصرية عام ١٩٣٤، حتى إن إعلانات شركة ماركوني لتوظيف المذيعين الجُدُد ظلَّت إلى حين تأميمها تنصُّ على (طلب تعيين هجَّاصين)، عِلْمًا بأن القضاء الشرعي المصري استمرَّ حتى إلغائه وإخضاعه للقضاء المدني عام ١٩٥٤ يرفض الاستماع لشهادات هؤلاء الهجَّاصين باعتبارهم من فئات المجتمع النَّجِسَة التي ينقصها العقل والدين، ومع ذلك لم يتوقَّف تدافُع الكثيرين وتزاحُمُهُم على ممارسة مهنة (الهَجْص) مدفوعين بحب المال أو هوس الشهرة، والتقطت الأجهزة السيادية لجمهورية ثورة ٢٣ يوليو منذ وقت مبكِّر كل المعلومات الخاصة بفئة الهجاصين وفحصتها باهتمام شديد، فأدركت أن تلك الفئة التي تعاني الاحتقارَ النخبويَّ والاحتضان الجماهيري في الوقت ذاته هي الأصلح لإنشاء حظائر السيطرة (الكنترول)، بتلميع وتنجيم الهجَّاصين من توابع الأجهزة ليصلوا إلى أعلى درجات الثراء والشهرة، مع استمرار إمساك تلك الأجهزة بالخيوط التي تقبض على أعناقهم".

وهكذا، ظهر الإعلامي التابع للسلطة وطنية وتأييدًا، أو المدفوع منها خضوعًا وارتزاقًا، فلم يعرف الناس مُتَنَفَّسًا لأي رأي معارض. وتولَّدَت من النسخة الأولى لشخصية الإعلامي بمرور الزمن شخصيات تبحث عن مؤلف، أعاد أغلبهم للمهنة سيرتها الأولى.

أما على المستوى السياسي، فكانت الثورة ترفع شعار "الاتحاد، النظام، العمل"، الذي ظلَّ مُدَوَّنًا على كراريس المدارس الابتدائية والإعدادية

حتى منتصف السبعينيات من القرن الماضي، وهو نفس الشعار الذي قال عنه الرئيس الراحل محمد نجيب بعد سنين طويلة عندما خرج من الإقامة الجبرية: "لم أستطع أن أطبِّق الشِّعار الذي أعلنته الثورة: (الاتحاد. النظام. العمل)، إلَّا على القطط والكلاب في إقامتي الجبرية بمعتَقَل المرج"!

نكتة تقود إلى المشنقة

لذلك؛ ظهرت في تلك الفترة "حفرة كبيرة" بين النظرية والتطبيق. كانت النظرية التي وضع عبد الناصر خطوطها العامة في "الميثاق" وروَّج لها الإعلامُ لَيْلَ نهارَ، شيئًا، أمَّا ما كان يحدث على الأرض بالفعل في دولة الأمن والمخابرات فكان "حمادة آخر" تمامًا!

واحد بيسأل التاني: متعرفش دكتور أنف وأذن وعيون كويس؟

قال له: قصدك دكتور أنف وأذن وحنجرة؟

قال: لأ، دكتور أنف وأذن وعيون، عشان اللي بسمعه غير اللي باشوفه!

وفي الفترة نفسها ظهرت محكمة بلا قضاة تُسمَّى "محكمة الثورة"، مكوَّنة من ٣ ضباط هم: جمال سالم وأنور السادات وحسن إبراهيم، لم يدرس أي منهم القانون، ولا علاقة لهم بالقضاء، باستثناء أن السادات نفسه كان متَّهَمًا في حادث اغتيال أمين عثمان وزير الداخلية عام ١٩٤٤، غير أن الفقهاء الدستوريين، ومنهم عبد الرازق السنهوري، الذي نال "جزاء سنمَّار" فيما بعد ضَرْبًا وركلًا بتدبير من عبد الناصر على أعتاب مجلس الدولة، أوجدوا لها تخريجةً قانونيَّةً مُعْتَبَرَة.

وأُلقي القبض على قاضٍ من منزله فجرًا، وكان الرجل رئيس دائرة جنايات في إحدى محاكم القاهرة، وأودع القاضي -رغم منصبه- محبوسًا في زنزانة انفرادية بـ "سجن القلعة" الرهيب حتى لا يختلط بالمساجين الجنائيين. وتبيَّن بعد ذلك أن تهمته هي "نكتة" ضد النظام، قالها أثناء جلوسه مع أصدقائه في نادٍ شهير.

وسرعان ما أُحيل القاضي إلى "محكمة الثورة" هذه، بتهمة التآمر مع عناصر

رجعية لإسقاط نظام الحكم والمساس بالثورة، فحكمت عليه المحكمةُ بأقصى عقوبة يمكن تصوُّرها عقابًا على إطلاق نكتة، وهي الإعدام شَنْقًا!

وأمضى القاضي بضعة شهور سجينًا في القلعة، وتدخَّل عدد من كبار القضاة متشفِّعين لدى مجلس قيادة الثورة، الذي لم يصدِّق على حُكْمِ الإعدام، وتمَّ الإفراج عن الرجل الذي لم يكن سوى المستشار فاروق سيف النصر، والذي أصبح وزيرًا للعدل فيما بعد، بل الوزير الأكثر تعفُّفًا ونزاهةً في تاريخ الوزارة.

ورغم الحكم بأقصى عقوبة على القاضي الذي قال نكتة، تسلَّطَت السخرية الشعبية بقوة على رجال الثورة، وكانت النُّكَت المتداوَلة في كل مكان تصل عبر التقارير الأمنية إلى مكاتبهم الجالسين فيها، وقد صاروا من أصحاب النفوذ الجُدُد، ثم إن الشارع العادي -الذي جاءوا منه- يسخر منهم!

والغريب أن محمد نجيب، الرجل الطيِّب النزيه، حذَّر من تَغَوُّل الضبَّاط الكبار والصغار على كل شيء في الحياة العامة، قبل تحديد إقامته جبريًّا، ووصفهم في جلساته الخاصة بأنهم "شُبَّان تنقصهم الحكمة، انقلبوا من رجال ثورة إلى رجال ثروة".

والسؤال هو: لماذا نكَّت الناس على رجال ثورة ٢٣ يوليو رغم أنهم خلَّصوا البلد من حكم الملك "فاروق الأول" ذي الأصل الألباني الفاسد، وحاشيته المرتزقة، كما خلَّصوها من سيطرة الباشوات المصريين والمتمصِّرين، ومن سطوة الهوانم والإقطاع والاستعمار، إلى آخر كل هذه البلاوي المعروفة، التي كانت جاثمةً على صدر مصر قبل عام ١٩٥٢.

ربما يكون تفسير حسين مؤنس وارِدًا، رغم تجنِّيه الواضح: "خلال ١٥٠ عامًا

من تاريخ مصر (١٨٠٥- ١٩٥٢) حكم الباشوات بلادنا وملكوا كل شيء فيها: السياسة والجاه وصدارة المجتمع والقصور والأموال والضِّياع. وفي ٢٣ يوليو ١٩٥٢ انتزعت منهم الدولة السياسة وصدارة المجتمع، ولكن، مَن الذي استولى على القصور والأموال والضِّياع؟ السوبر باشوات! باشوات بلا ألقاب، وناس بلا إنسانية، ومواطنون بلا وطنية".

ويكفي في هذا الصدد الإشارة إلى "دستة" المناصب والرئاسات الشرفية التي تولَّاها عبد الحكيم عامر، مثلًا، فإلى جانب مناصبه الأساسية كنائب لرئيس الجمهورية، ونائب القائد الأعلى للقوات المسلحة، والقائد العام للقوات المسلحة، كان الرجل: رئيسًا لاتِّحاد كرة القدم، ومشرفًا على المركز القومي للبحوث، ومشرفًا على وكالة الطاقة الذرية، ورئيسًا شرفيًّا للطرق الصوفية، ومشرفًا على هيئة النقل العام بالقاهرة، ورئيسًا لِلَّجنة العليا لتصفية الإقطاع، ورئيسًا للمجلس الأعلى للمؤسَّسات... هكذا!

وبعد مرور ١٠ سنوات على الثورة، أي بحلول عام ١٩٦٢، كان كبار الضباط وصغارهم قد تولَّوا المناصب والوظائف العليا والدنيا في البلد، بما في ذلك مناصب الوزراء والمحافظين ورؤساء والهيئات والمؤسسات والشركات العامة ومؤسسات الحكم المحلي والأجهزة السيادية، ناهيك عن المؤسسات الصحفية ووسائل الإعلام، بشكل شبه احتكاري، فشغلوا مثلًا ٧٢ منصبًا ووظيفة من كل ١٠٠ وظيفة في السلك الدبلوماسي.

هذا الوضع الغريب يفسِّره أكاديميٌّ فلسطيني بقوله: "أقام العسكريون في الدول المستقلَّة حديثًا بعد مرحلة الاستعمار مجتمعات خاصة، وقوَّموا أنفسهم كنوع من الأخويات المغلقة في مقابل المدنيين، وطوَّروا سرديَّاتٍ

تؤكِّد تفوُّقَهم وانضباطهم وعدم ميوعتهم في مقابل فوضى الحياة المدنية. فهم يمثِّلون المؤسسة الوحيدة الحديثة التنظيم على مستوى الدولة، التي تشمل أعدادًا كبيرة نسبيًّا من المواطنين في مقابل مؤسَّسات الدولة الأخرى، وفي مقابل تخلُّف المجتمع".

رئاسة الجمهورية "سِرِّيٌ جدًّا"

يصوِّر شهود عيان تلك الفترة كيف أن عبد الناصر بعد بضع سنوات من الثورة أصبح رجلًا يملك ولا يحكم، بل يتولَّى الحُكْمَ نيابةً عنه رجالُه ورجال عبد الحكيم عامر، الذين صار لكل منهم رجال وأتباع شكَّلوا ما يمكن تسميته "عِزْوَة سياسية"، ثم أمسكوا بأطراف الدولة؛ كُلٌّ من ناحيته، فبات لهم الأمر والنهي في كل المؤسَّسات، يصدرون القرارات وينفِّذونها دون علم عبد الناصر نفسه، وإذا سأل هو عن أي شيء يأتيه التمام الواجب: "كله تمام يا ريِّس".

وفي صباح ١ مارس ١٩٦٥، استيقظ عبد الناصر منزعجًا على خبر منشور في الصفحات الأُوَل للجرائد اليومية الكبرى وقتها "الأهرام والأخبار والجمهورية"، بشأن قرار حكومة صدقي سليمان رفع سعر الجاز الأبيض "الكيروسين"، الذي كان الوقود الأساسيَّ لعموم المصريين آنذاك، ثم إنه -وهو الرئيس- آخر من يعلم في هذا البلد!

وكان هناك خبر آخر منشور في اليوم نفسه، والصفحات الأولى نفسها بكل الجرائد، عن اكتشاف "بير بترول" جديد في منطقة خليج السويس، وهو ما أشعل غضب عبد الناصر أكثر، فهدَّد بإقالة الحكومة على اعتبار أنه ليس فيها "رجل رشيد" واحد يستطيع أن يكتشف التناقُضَ الفاضح بين اكتشاف "البير" وغلاء الكيروسين. وطلب الرئيس من معاونيه أن يأتيه خلال ٢٤ ساعة تقريرٌ عاجل ومُفَصَّل، عن رأي الناس في رفع سعر "الجاز" من ٧ مليمات إلى ٢٠ مليمًا، دفعة واحدة.

وفي الموعد المحدَّد، ورد إلى عبد الناصر تقرير مُطَوَّل تحت عنوان "رئاسة

الجمهورية العربية المتحدة. سرِّي جدًّا"، جاء فيه نَقْلًا عن الكاتب الراحل ضياء الدين بيبرس بتصرُّف: "أثار قرار حكومة السيد صدقي سليمان بإخراج الكيروسين من بطاقات التموين وطرحه للتداول الحر في السوق، مع رفع سعره إلى ٢٠ مليمًا، أي ضِعْفَيْ سعره السابق في البطاقات- موجةً من القلق في البلاد؛ نظرًا لتوفُّر (عنصر المفاجأة) فيه، ووضعه الجماهير أمام الأمر الواقع"!

وانتقد التقرير -وهو وثيقة رسمية بالغة الشفافية والصراحة- صدورَ مثل هذا القرار بالتزامُن مع حملة صحفية عن الاكتشافات البترولية الجديدة: "التي يعيش الناس بعدها آملين فيما يمكن أن تحقِّقه هذه الاكتشافات من خير للدولة والشعب"، واصفًا المبرِّرات التي ساقتها الحكومة لإصدار القرار بأنها "سطحية".

وكان من تلك المبرِّرات، دعوى الحكومة أنها بذلك تحارب "التجار المستغلين" الذين يبيعون الجاز في السوق السوداء بـ١٠ مليمات، وهو ما اعتبره التقرير "تهرُّبًا من مسؤولية قمع هؤلاء التجار"، ناهيك عن "التَّذَرُّع غير المنطقي بأن القرار سيحقِّق وَفْرًا قدره ٢,٥ مليون جنيه سنويًّا لموازنة الدولة ضمن بند دعم الوقود، في حين أن الحكومة استطاعت توفير ٤٨ مليون جنيه نتيجة لضغط مصروفاتها الدورية خلال النصف الأول من السنة المالية الحالية، وكان يمكنها بمزيد من الضغط على بعض المصروفات الترفيهية خلال النصف المتبقِّي من السنة المالية، توفير ما يزيد على الاعتماد المالي المُخصَّص للكيروسين في الموازنة العامَّة".

ورصد التقرير السري -نَصًّا- كيف أنه "لا يوجد بيت في الجمهورية العربية المتحدة لم يتأثَّر بصورة أو بأخرى من هذا القرار"، وكيف أن "أجهزة التموين أخذت تطبِّل وتزمِّر في الشهور الأخيرة حول قرار خفض أسعار الأحذية

واللحوم والملابس الجاهزة، لكنها مسحت بقرار رفع سعر الكيروسين كلَّ فَضْلٍ لها، ثم لم يَعُدْ لها صوتٌ الآن"!

وكان من الطبيعي، والحال كذلك، أن تجرف النكت في طريقها معظم رجال الحكم بدءًا من عبد الناصر نفسه، مرورًا بعبد الحكيم عامر وزكريا محيي الدين وعبد اللطيف البغدادي وحسين الشافعي وشعراوي جمعة، وصولًا إلى صلاح نصر وعلي صبري وشمس بدران وحمزة البسيوني، إلى آخر قائمة هذه الأسماء التي ملأت الدنيا يومًا، ثم عَرَّضَت بهم النُّكَتُ أيَّامًا.

"الوَفِيّات" في الصفحة الأولى

من المعلوم عن عبد الناصر أنه كان يتعامل بجديَّة تامَّة مع النكت المتداوَلة في الشارع، وكان يكلِّف أجهزة الرئاسة بجمع تقارير يومية وأسبوعية وشهرية عن النكت المنتشرة، ويقال إنه كان يُولِي النكات التي تتناول رجال الحكم من الضباط الأحرار ومعاونيهم اهتمامًا خاصًّا؛ باعتبارها مؤشِّرًا على رأي الناس فيهم.

وكلَّف عبد الناصر عام ١٩٥٣ زكريا محيي الدين وصلاح سالم بإنشاء "مصلحة الاستعلامات"، التي بدأت عملها فعليًّا وظهرت إلى حَيِّز الوجود عام ١٩٥٤. وكانت مهمة مصلحة الاستعلامات الأولى هي جمع المعلومات وكتابة التقارير واستقصاء رأي الناس في القرارات التي تتَّخذها الثورة، وفي الأوضاع السياسية السائدة وقتها بشكل عام، بكل طرق التعبير الممكنة، بما في ذلك النكت والنمائم والإشاعات.

وذكر الكاتب عادل حمودة أنه يوجد على مستوى مصر منذ مطلع الستينيات، ٥٦ مركز إعلام داخليًّا تابعة لـ "هيئة الاستعلامات"، ويقع ضمن مهام هذه المراكز تجميع النُّكَت كأحد أشكال الرأي العام، ومن ثم إرسالها إلى مقرِّ الهيئة الرئيسي في القاهرة، الذي تصبُّ فيه كل تقارير النكت، فيتمُّ اختزالها في تقرير واحد ورفعه إلى رئيس الهيئة، الذي يرفع التقرير إلى رئاسة الجمهورية، بنظامٍ مُؤَسَّسِيٍّ دقيق، يُدَلِّل عل مدى أهمية النكت.

وقال سامي شرف في حوار لـ "حمودة" إن "عبد الناصر كان أحيانًا يعرف النكت قبل أن أقولها له، وهذا يعني أن أكثر من جهة وشخص، يوصلون له النكات التي يتناقلها الناس".

وفي بعض الأحيان، كان "شرف" -كما قال- يتحرَّج من توصيل نكتة عن عبد

الناصر نفسه تتجاوز حدود الأدب، حسب تعبيره، فيعفيه الأخير من الحرج، ويحكي له النكتة بنفسه!

وغير مكاتب هيئة الاستعلامات، كانت هناك ٥ مصادر أخرى تصل منها تقارير يومية إلى عبد الناصر، بكل ما يقوله الناس من أحاديث عن نظام الحكم، بما في ذلك النكت والشائعات بشكل خاص. وهذه المصادر هي: المخابرات العامة، والمباحث العامَّة، وهي غير المباحث الجنائية، وكانت تقوم بدور "أمن الدولة" فيما بعد، ومكتب المخابرات المصغَّر الذي كان معروفًا باسم "مخابرات الرئاسة"، والمصدر الرابع هو مكتب المعلومات الملحق بمجلس الوزراء، برئاسة الضابط محيي الدين أبو العز. أمَّا المصدر الأخير، فهو خطابات البريد التي يبعث بها المواطنون إلى الرئيس، وكان منها خطابات من مواطنين يدوِّنون بياناتهم الرسمية، ومنها ما هو مُرسل من "مجهول".

ومن النكت الشهيرة في تلك الفترة: اصطاد رجل يتسلَّى بسنَّارة على النيل سمكةً كبيرة، فعاد بسرعة إلى البيت سعيدًا، ولكن زوجته بادرته فور دخوله من الباب بقولها:

- ياما جاب الغراب لامُّه.

- ليه دي سمكة تِوْزِن لها ٣ كيلو.

- هنعمل بيها إيه؟

قال لها: نقليها ف الزيت.

- مفيش زيت.

- نطبخها في الصلصة.

- مفيش.

- نسلقها في الميه.

- مفيش جاز أصلًا.

هنا أمسك الرجل بالسمكة، وعاد بها من حيث أتى، ثم ألقى بها في النيل، فراحت السمكة تهتف وهي تتقافز في الماء: عاش الزعيم جمال عبد الناصر!

وكان شعار "ارفع رأسك يا أخي" الذي أطلقه عبد الناصر مثارَ تنكيت، خصوصًا أن جهاز المباحث العامة ذا القبضة الحديدية لم يكن يترك أحدًا يفعل ذلك.

دخل رجل صالون حلاقة، وحين جاء دوره جلس على الكرسي مستعدًّا، فسأله الحلاق: شعر ولَّا دقن؟ رد: شعر ودقن، فقال له الحلَّاق: طب ارفع راسك، تلفَّتَ الرجل حوله ثم قال: طيب خلِّيها شعر بس!

ويُحكى أن الأديب عبد الحميد جودة السحار كان يمرُّ يوميًّا على بائع جرائد قريب من مسكنه، ويتطلَّع من بعيد إلى عناوين الصحف الصادرة كل يوم، ويأخذ وقتًا في ذلك؛ لأن نظره ضعيف، ثم يمضي دون أن يشتري أي جورنال. فسأله البائع الذي أغاظه ذلك: هو انت يا الافندي بتحب تقرا أخبار الصفحة الأولى بس؟

رد عليه "السحار": أيوه، أصل اللي بدوَّر عليه "خبره" هينزل ف الصفحة الأولى!

وغضب عبد الناصر بشدَّة من هذه النكتة، وأوشك أن يُصدر أمرًا باعتقال "السحار"، لولا تدخُّل حسن إبراهيم، نائب رئيس الجمهورية حينها، الذي أقنع الرئيس بأن "السحار" ليس بطل هذه الواقعة، بل إنها أصلًا نكتة بولندية من أيام الحرب العالمية الثانية.

وطالت النكتة كل رجال النظام بلا استثناء، ومن هؤلاء: عبد الحكيم عامر، ابن قرية "أسطال" بالمنيا، المسطول ليل نهار. وكانت هذه هي البطحة استهدفها صُنَّاع النكت في رأس المشير، ومن ذلك أن الرجل كان عائدًا ذات ليلة مع شمس بدران مدير مكتبه من إحدى السهرات. وكان الطريق شبه مظلم، وأغلب أعمدة الإنارة معطَّلة، وفجأة انحرفت السيارة في منحنى خطر، فصرخ "عامر": حاسب يا "شمس" كنت هتدخَّلنا ف عمود النور، رد "شمس": بس انت اللي سايق يا افندم!

وذات ليلة سمع الزعيم الراحل نكتة قالها المنولوجست أحمد غانم عن أزمة "الرز" التي كانت مستحكِمَة، على الهواء مباشرة، في آخر فقرات البرنامج الإذاعي المشهور "أضواء المدينة". وكان الوقت بعد منتصف الليل، لكن الرئيس لم يتحرَّج أن يتصل بوزير التموين في منزله، ويصر على إيقاظه من نومه لسؤاله عن هذه الأزمة.

وفي الصباح اجتمع وزراء المجموعة الاقتصادية في مجلس الوزراء اجتماعًا طارئًا بسبب هذه النكتة، التي تقول إن رجلًا من سكَّان القاهرة علم أن الرز متوافر بكثرة في الإسكندرية، فقرَّر السفر لكي يشتريه من هناك. وفي القطار دردش مع الكمساري الذي سأله:

- انت مسافر إسكندرية ليه؟

- رايح أشتري رز.

واصل الرجلان الكلام في أمور أخرى، حتى دخل القطار على محطة طنطا، فقال له الكمساري:

- استعد عشان تنزل هنا.

- بس احنا لسه قدَّامنا ساعة على إسكندرية.

- مش عايز تشتري رز؟

- أيوه.

- انزل، الطابور بيبدأ من هنا!

وتراجعت النكتة كثيرًا من حيث القوة والانتشار خلال الفترة بين عامي ١٩٥٧- ١٩٦٧؛ نظرًا للقوَّة الحماسية الدافعة التي أعطتها خُطب عبد الناصر للجماهير في كل أنحاء العالم العربي، وليس في مصر فقط. ثم عادت النكتة مرة أخرى بعد هزيمة ٦٧ المنكرة، التي لم يبرأ العرب منها حتى هذه اللحظة.

ولم تكن كل النكت المتداولة في تلك الفترة محليَّةَ الصُّنْع، بل إنها بعضها كان يتمُّ اقتباسه من بلدان أخرى، خصوصًا من دول أوروبا الشرقية الاشتراكية، التي كانت تعيش ظروفًا سياسية مشابهة لتجربة مصر تحت حكم عبد الناصر. وكان يجري تحوير هذه النكت أو "تمصيرها" حسب الطلب.

"مجلس نُكَت" داخل السفارة

ظهرت في الفترة نفسها نُكَتٌ مصنوعة، كانت تؤلِّفها جهات معادية للثورة في الداخل والخارج، وتطلقها في الشارع المصري، فتصل تلقائيًّا إلى كل العواصم العربية؛ بغرض تشويه التجربة الناصرية. تقول الأكاديمية العراقية د. حميدة سميسم: "إن هدف الضحك الذي تثيره النكتة هو خلع ستار الجدِّيَّة التي تحيط به السُّلْطَةُ نفسَها، وإزالة بريق الشخصية عن القيادة. وقد شهدت التجارب المعاصرة، وبالذات بعد العدوان الثلاثي على الشقيقة مصر عام ١٩٥٦، صورًا متعدِّدة للمحاولات الاستعمارية من أجل مَسْخِ الصورة القومية لقيادة جمال عبد الناصر، سواء بابتكار نُكَتٍ جديدة ضده، أو باستعمال نُكَتٍ عرفتها العصور العالمية السابقة مع إجراء بعض التحوير عليها".

وقال مصطفى طلاس، وزير الدفاع السوري الأسبق، إنه سمع من عبد الناصر شخصيًّا خلال زيارة له في منزله بحي "منشية البكري"، أن هناك فريقًا متخصِّصًا من الأمريكيين والمصريين الذين وصفهم بـ "الرجعيين"، كانوا يعملون من داخل السفارة الأمريكية في القاهرة، ومَهَمَّتُهم الوحيدة هي تأليف النكت السياسية التي تنال من نظامه، وتُضعف من هيبة عبد الناصر الشخصية.

واتهم صلاح نصر، رئيس جهاز المخابرات الأسبق، في كتابه "الحرب النفسية: معركة الكلمة والمعتقد" الصادر سنة ١٩٦٦، السفارةَ الأمريكيةَ صراحةً بأنها كانت تعقد "مجلس نكت" أسبوعيًّا، يضمُّ "شِرْذِمَةً من الخَوَنَة المأجورين من مُحترفي حَبْكِ النُّكَت؛ للتعريض بالضبَّاط الأحرار والمسؤولين الكبار".

والمثير أن مصطفى أمين كان واحدًا من المتردِّدين على السفارة وقتها.

وليس من المُسْتَبْعَدِ أن كل تُهْمَةِ الرجل الذي قضى ٩ سنين من حياته في السجن بتهمة التخابُر لصالح الأمريكيين، وكتب عن هذه السنوات التسع ٩ كتب؛ كل تهمته أنه شارك في تأليف النُّكَت التي كان يحكيها لـ "عبد الناصر"!

كلام صلاح نصر أكَّده الخبير العسكري اللبناني هشام جابر، الذي قال إن ضابطًا أمريكيًّا برتبة "كولونيل" اعترف أمامه أيام كان مُبْتَعَثًا للدراسة في قاعدة حربية بولاية كارولينا الشمالية، بأن سفارة بلاده كانت تستعين بمجموعة من المصريين الموهوبين في مجال الفكاهة، ممَّن يحترفون تأليف النكت على المقاهي، وآخرين من المعارضين للنظام؛ لكي يشتركوا في تأليف نُكَتٍ تنال من شخص عبد الناصر نفسه في الأغلب الأعمِّ.

غير أن صلاح نصر الذي اتَّهم الأمريكيين بإيواء "شرذمة" من مُحترفي صناعة النكت، كان هو نفسه يقول نُكَتًا ضد عبد الناصر في سهراته الخاصة، وذكر عبد الله إمام أن بعض المتَّهمين في قضية "انحراف المخابرات" في مارس ١٩٦٨، أكَّدوا أن "نصر" كان أحيانًا يخرج من جيبه ورقة مكتوب عليها "سرِّي جدًّا" خلال السهرات الخاصة، ويقرأ منها نكتًا ممَّا يقوله الناس عن عبد الناصر والسادات، وأنه كان يضحك بشدة بعد كل نكتة يقولها مردِّدًا في كل مرة: شوفوا الناس بتقول إيه عن "عبد الجبار وتابعه أبو الأنوار"!

ورغم ذلك، أكَّد رئيس المخابرات في كتابه المشار إليه أنه "لا مجتمع بلا نُكْتَة، ولا نُكْتَة بلا سبب، فالنِّكات تفسِّر كثيرًا من أخلاق المجتمع وسلوكه ومعتقداته وأمانيه ومتاعبه ورغباته. وبعضها قد يكون من وحي الخيال الصرف، ولا يستهدف أكثر من الضحك. أمَّا أخطرها فهي تلك النُّكَت الموجَّهة، ولقد قام الاستعمار والرجعية بترويج كثير من الشائعات العدائية ضد نظام

الحكم في مصر، في شكل نِكاتٍ بذيئة، وتضافَرَت جهود أعداء الوطن على نشرها بين الناس. وهذا النوع من القصص يُطلَق عليه اسم (الفكاهات ذات المآرب)، فبدلًا من أن يُصرِّح الرجعيُّ أو الانتهازيُّ بأنه يكره النظامَ، يلجأ إلى رواية هذه النكات التي تعبِّر عن أمانيه الشريرة".

ولم يكن "الرجعيُّون" والأمريكيُّون وحدهم هم من يستعملون النكتة كسلاح ضد عبد الناصر وصحبه، إذ يرى عادل حمودة أن النكتة السياسية استُعْمِلَت في تلك الفترة كأداء من أدوات الصراع الدائر في الكواليس على السلطة بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، وأن رجال عامر استخدموها بقوة ضد الرئيس الراحل والمقرَّبين منه.

كان أحد عُمَّال مصانع حلوان يقبض راتبه من الصَّرَّاف، فقال له: مُرَتَّبَك ٧ جنيه، ١٢٠ قرش ضرايب، و١٣٠ تأمينات، و٢ جنيه نفقة، و٢ جنيه قرض من البنك، و١٤٠ قرش جزاءات وخصومات تأخير، يبقى لك ١٠ صاغ.

أخذ العامل "البريزة" صاغِرًا، ودخل المطعم المجاور ليشتري سندوتش فول، ولفَّ له صبي المطعم السندوتش في ورقة جورنال، لمح فيها الزبون صورة عبد الناصر فقال: لا والنبي بلاش... أحسن ياكل السندوتش كمان!

وبعد موجة التأميمات التي طالت كل شيء في البلد، خرج عبد الناصر متخفِّيًا يتمشَّى بمفرده في وسط البلد؛ حتى يتفقَّد أحوال الناس ويعرف آراءهم بنفسه في قرارات التأميم، وسمع شخصًا يقول لآخر: والله يا أخي الواحد مرتَّبه بيخلص يوم ١٠ ف الشهر، سأله صاحبه: أومَّال بتعيش إزاي باقي الشهر؟ قال الأول: آدي احنا عايشين ع السَّتْر.

وفي صباح اليوم التالي، أصدر عبد الناصر قرارًا جمهوريًّا بتأميم "السَّتْر"!

ويورد جليبرت سينويه، الأديب الفرنسي من أصل مصري، في كتابه البديع "البكباشي والملك الطفل... مذكِّرات من مصر" بعضًا من مشاهداته عن تلك الحقبة قائِلًا: "اليوم على كل حال، ليس من المستحبِّ أن يجهر المرءُ برأيه في شوارع القاهرة؛ لذلك يتواسى الناس داخل المقاهي الشعبية بتبادُل النِّكات التي تسمح لهم بالاستمرار في الحياة رغم الخوف، كما لو أن كل هذه المصائب لا تعنيهم، ومنها هذه النكتة:

- تعرف آخر الأخبار؟ تقدَّم حمار أمس إلى نقطة الحدود الليبية، وسأله رجل الجمارك: ما هو سبب مغادرتك؟

أجاب الحمار: عشان بيحطُّوا الجِمال ف المعتقلات، قال له الموظف: بس انت حمار مش جمل.

هز الحمار رأسه وقال: صحيح، بس حِلِّني بقى لغاية ما يفهموا كده!".

وقابل أحدهم صديقه في الشارع مصادَفةً، فوجده يربط أنفه بالشاش والقطن، قال له: ألف سلامة، اتعوَّرت ولَّا إيه؟

- لأ، كنت بخلع ضرسي.

- بتخلع ضرسك من مناخيرك؟

- هو في حد يقدر يفتح بقه اليومين دول!

عصر الضحك العظيم

قبل أن يكتشف الناسُ وقوعَ هزيمة ٦٧، بساعات، كان هناك يقين عام، لا منازع فيه، بأننا "أقوى قوة في الشرق الأوسط".

وكان المتحمِّسون من المواطنين الشرفاء في القاهرة والمحافظات يكتبون على جدران الشوارع شعاراتٍ حماسيَّةً من قبيل "سنلقي بإسرائيل في البحر" و"إلى فلسطين راجعين" و"غدًا في تل أبيب"، و"يا عبد الناصر يا حبيب اضرب اضرب تل أبيب"، تحت التأثير المخدِّر لبيانات المذيع أحمد سعيد في إذاعة "صوت العرب" عن النصر المبين، وإعلانه إسقاط ١٢٠ طائرة للعدو كل ساعة، وندائه بعد كل بيان: "أين أنت يا موشى ديان"!

يقول الكاتب الراحل صلاح عيسى: "حين عرفت الجماهير الأبعاد الحقيقية للموقف عقب عودة الجنود الهاربين من جبهة القتال، والذين تركتهم قيادتهم يواجهون الجيش الإسرائيلي بلا أي خطط، وعقب سماعهم لما عاد به هؤلاء الجنود من حقائق، تعرَّض النظام الناصري وجيشه البرجوازي لأقسى عملية نقد تعرَّضَ لها جيش مهزوم ونظام مهزوم في التاريخ. وبأسلوبهم الخاص والمميَّز، تداول المصريون آلاف الفكاهات الساخرة والحادَّة، وضعت نظام عبد الناصر أمام محكمة شعبية آلمته وعجز عن مواجهتها".

ووصل الأمر حدَّ أن المشير عامر طلب من أسرته يوم ٥ يونيو أن يجهِّزوا حقائبهم لـ "التصييف" في تل أبيب خلال ساعات.

وفي نهاية اليوم، اتَّصل المشير من مكتبه قائلًا: مفيش داعي للسفر، الناس اللي كنَّا هنروح لهم وصلوا!

ورفع رجلٌ كان يمشي في الشارع يديه إلى السماء، وأخذ يردِّد بصوتٍ عالٍ

سمعه المارَّةُ: منك لله يا "عبد الظاهر"... خربت البلد يا "عبد الظاهر".. اليهود احتلُّوا سينا يا "عبد الظاهر". وسمعه مخبر من المباحث العامة، فقبض عليه، وأخذ يصفعه على قفاه قائلًا: وكمان أهبل ومش عارف اسم الريّس!

وإذا كانت أمريكا استعانت بـ "مجلس نُكَت" للنيل من شخص عبد الناصر ورجاله في عزِّ مجدهم خلال العَشْرِيَّة الذهبية لحكمهم، الممتدَّة من سنة ١٩٥٧ إلى ١٩٦٧، فإن المخابرات الإسرائيلية استكملت المهمة بعد هزيمة ٥ يونيو ٦٧، وروَّج "الموساد" في مصر بكل الطرق نوعًا من "نُكَت التيئيس"، أي النُّكَت الباعثة على اليأس والإحباط في أوساط الناس، لتُلقي في رَوْعِهم أن نشوب أي حرب جديدة مع إسرائيل بات أمرًا مستحيلًا.

كان مرشد سياحي يتحدَّث إلى مجموعة من السياح في منطقة الأهرامات، فقال بصوت عالٍ مفتخرًا بوطنه: "إن مصر هي صاحبة أقدم حضارة في التاريخ عمرها ٧ آلاف سنة"، فردَّد صدى الصوت ما قاله المرشد وكأنه يؤمِّن على كلامه، وسط انبهار السُّيَّاح. أضاف المرشد متحمِّسًا: "ومصر هي أم الدنيا ومنبع الحضارة"، فأعاد الصدى ذلك أيضًا. وهنا أخذه الحماس، فقال: "وهنحارب إسرائيل"، فردَّد صدى الصوت: "بس يا اهبل"!

وبلغ من خطورة "نكت التيئيس" هذه، أن حذَّر منها عبد الناصر في ثاني خطاب عام له بعد "خطاب التنحِّي" الشهير عَشِيَّةَ الهزيمة، وقال في خطابه نَصًّا: "الشعب المصري يسمع أي حاجة ينكِّت عليها، تعرفوا موجة النكت اللي طلعت اليومين اللي فاتوا، أنا عارف شعبنا، شعبنا طيِّب كده، وانا مخدتش الموضوع جد (!)، وعارف إن الشعب المصري كويس، ما أنا منه واتربيت فيه، كل واحد يقابل واحد يقول له: سمعت آخر نكتة؟ ويحكي،

وممكن يستخدموها بأن تُقال بعض النكت اللي تأثَّر على كرامتنا كشعب له طلائع قاتلت وماتت، النُّكَت اللي طلعت دي جرحت كرامة ناس همَّا أولادنا واخواتنا (...) أنا عارف إن الشعب المصري ده عمره ٧ آلاف سنة، وقَهَر كل الغزاة وكسرهم وخلَّص عليهم، وبعد كده قعد بِنَكِّت، شعب له فلسفة وطنية وصَلْب أوي، لكنه شعب يحب النكتة، وأنا باعتبر دي ميزة لأنه بيفلسف بيها الأمور، لكن إذا جُمْ أعداءنا واستغلُّوا فينا هذه الطبيعة عشان يحقَّقوا أهدافهم، يبقى لازم نكون ناصحين، لازم كل فرد يكون ناصح".

ولأن نكت الهزيمة كانت قاسية جدًّا، كرَّر الرئيسُ الراحل تحذيرَه منها، وقال في مؤتمر لـ "الاتحاد الاشتراكي" عام ١٩٦٨: "يا تنظيم يا سياسي يا لِّلي مفروض تبني معنا القوات المسلحة؛ لأن هذه القوات التي تُبنى من جديد هي من أولادك وإخوانك، حِدّْ من إطلاق النكت لأنها ستؤثِّر على الروح المعنوية، وقد يترتَّب عليها إننا نعجز عن عملية البناء السريع الذي نسعى إليه، نريد بناء سريعًا، ولكن كيف؟ كلَّما وضعنا طوبة، قوبلنا بنكتة، نريد تجاوز هذه المرحلة، وأن نبدأ مرحلة جادَّة وليس معركة نُكَت".

وصدرت الجرائد الكبرى في صباح اليوم التالي بمانشيتات هي الأولى من نوعها في تاريخ الصحافة، مثل: عبد الناصر يقول: "بطِّلوا نُكَت"، و"الرئيس: احذروا التَّنكيت"، و" عبد الناصر: كلما وضعنا طوبة قُوبِلْنا بِنُكْتَة"!

وعن هذه الخُطَب المحذِّرة من التنكيت، قال الكاتب الراحل أنيس منصور بعد ذلك بـ ٢٠ سنة: "في أول خطاب للرئيس عبد الناصر بعد الهزيمة طلب إلى الشعب أن يَكُفَّ عن النكت، أول مرة يتوجَّع فيها رئيس دولة من النُّكَت،

أول تجريم وتأثيم للنُّكَت على هذا المستوى. لقد نسي الرئيس أن المصريين أولاد نكتة -إننا مختلفون عن الشوام الذين أرادنا أن نكون مثلهم: فلاسفة لا يضحكون!- فقد اقتسمنا مع الرئيس الضحك والفلسفة، هو يتفلسف ونحن نسخر من ذلك! وكان هذا الطلب ينطوي على مغالطة شنيعة، فهو يتوسَّط لدينا أن نَكُفَّ عن السخرية من الجيش، أي أن الجيش هو وحده المسؤول عن الهزيمة. ولم ينتبه عبد الناصر إلى النُّكَت ليست ضدَّ الجيش، وإنما ضدَّه هو".

ويقال إن عبد الناصر طلب من المخابرات أن تعمل على وقف تداول النُّكَت السياسية في الشارع المصري؛ لِكَوْنِها تؤثِّر على معنويات الجيش، في مرحلة إعادة بنائه بعد الهزيمة.

وعمدت المخابرات إلى جمع النُّكَت المتداوَلة وقتها على أوسع نطاق ممكن عبر مصادرها الخاصة، بمعاونة مكاتب هيئة الاستعلامات" وأعضاء "منظمة الشباب" التابعة للاتحاد الاشتراكي. وأحصى خبراء الجهاز بعد شهور من العمل عدد النكت، وموضوعاتها، وأماكن تداولها، ومدى انتشارها بين الناس، فتبيَّن بعد البحث والدراسة أن الأمر مُعَقَّدٌ جدًّا.

ورُفِعَ إلى عبد الناصر تقرير جاء فيه أن اتِّخاذَ أي تدابير من شأنها "وقف النكت" بقرار رسمي أمر مستحيل ما دام المبرر لإطلاقها قائِمًا، كما أنه لا أحدَ يعلم مصدر النكت الأصلي، ولا أين يجري تداولها أو مَن يتداولها؛ لأنها تسري في الهواء، شأنها شأن الشائعات، إلَّا إذا تَمَّ تخصيص "مخبر لكل مواطن".

وعن النكت التي استهدفت عبد الناصر بشكل شخصي، يقول هشام جابر: "إن النكتة السياسية لا يمكن أن تنجح إلَّا إذا كانت على قياس الحاكم المراد التعرُّض له، فلم نسمع أي نكتة سياسية تُصَوِّر عبد الناصر باعتباره ماجِنًا

أو فاسِقًا أو حشَّاشًا، بل ركَّزَت النكت على أشياء منطقية، مثل تَسَلُّطه وديكتاتوريته وديكتاتورية نظامه عمومًا".

وقال الشاعر الراحل صلاح جاهين في حوار مع د. عمرو عبد السميع قبل وفاته، إن "أغزر النكت السياسية كان في عصر عبد الناصر، فقد كانت عدَّةُ جبهات تهاجمه بشكل عنيف جدًّا، بما في ذلك اليمين واليسار، والمثقَّفون الذين اختلفوا مع منهجه، والخاضعون للحراسة، وغيرهم. هؤلاء جميعًا اصطدموا بعناصر نموذجه السياسي، ومن هنا كان اندفاعهم في السخرية منه كبيرًا. وأذكر أن أجهزة الأمن وقتها كانت تضمُّ خبراء في تحليل هذه النكات، وبعض أولئك الخبراء كان يستطيع أن يعرف -مثلًا- مكان ظهور النكتة، من شبرا أم من بورسعيد".

وفي منتصف القرن التاسع عشر، ظهرت في منطقة "الخليفة" بالقاهرة قهوة شعبية لها اسم غريب هو "المضحكخانة الكبرى"، أي بيت الضحك الكبير. واستمرَّ هذا المقهى مفتوحًا حتى اندلاع ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال البريطاني.

ولم يكن لهذا المقهى في بادئ الأمر علاقة بالسياسة؛ فقد أسَّسه رجل كان اسمه الشيخ حسن الآلاتي، وكان الرجل كما وصفه أحمد أمين "فَكِهًا لطيفًا، يجتمع مع بعض أصحابه في البيوت يتسامرون ويتنادرون، ويتكلمون في الجد والهزل، ثم تسامع بهم الأصحابُ فكثروا حتى ضاقت عليهم البيوت، فاتَّخذوا قهوةً لطيفة في حي الخليفة بالقرب من السيدة سكينة (رضي الله عنها)، شاع صيتها في القاهرة، وكان يأتيها الناس من كل ناحية، بل كان يأتيها بعض الأمراء في زي الفقراء ليَرَوا هذه الأعجوبة".

وأثناء فترة الاحتلال البريطاني كان يجتمع في "المضحكخانة" كلَّ ليلةٍ عددٌ

من الوطنيِّين والظُّرفاء والجمهور؛ ليؤلِّفوا نُكَتًا لاذِعةً ضدَّ الإنجليز والسراي الملكي ورجال الحكم، ويتخطَّفها روَّاد المقهى منهم، ويذيعوها في كل مكان.

ومن غرائب المصادفات أن العقار الذي كانت تحتلُّ القهوةُ الدَّوْرَ الأرضيَّ فيه، تمَّ نَزْعُ مِلْكيَّته من الورثة في عهد عبد الناصر، وبُنِيَت مكانه "مديرية أمن القاهرة" حاليًا. وهذه ربما تكون مصادفة غير سعيدة، غير أنها تؤكِّد العداءَ القديم أو "البايت" بلغة الصعايدة، بين الرئيس الراحل والنُّكَت!

ولكن، عاد إلى عبد الناصر نفسه حِسُّه الفكاهي من جديد قبل أيام قليلة من رحيله، غير أن فكاهاته كانت على الملأ هذه المرة، فقد بدا الصعيدي القوي كأنما أدركه التَّعبُ أخيرًا، وأدرك الرجل أن الحياة لا تستحقُّ التَّجَهُّمَ.

وفي أثناء حوار جانبي على هامش مؤتمر القمة العربية الطارئ الذي عقد بالقاهرة في ٢٣ سبتمبر ١٩٧٠؛ لإيقاف القتال المندلع في "أيلول الأسود" بين الفلسطينيين والأردنيين، وهو آخر مؤتمر قمة حضره الزعيم الراحل، وتوفي بعده بـ ٥ أيام فقط، قال العقيد معمر القذافي: إذا كنتَ تواجه مجنونًا مثل (الملك) "حسين" يريد أن يقتل شعبه، فلا بُدَّ من إرسال مَن يقبض عليه، ويضع الأغلال في يديه، ويرسله إلى مستشفى المجانين.

ردَّ عليه الملك "فيصل" الذي كان أكثر الحاضرين حِكْمَةً وتَعَقُّلًا: لا أظن أن من اللائق أن تصف ملكًا عربيًّا بأنه "مجنون".

قال القذافي: لكن أسرته كلها مجانين، المسألة مسألة "سِجِل وراثي".

وهنا قال عبد الناصر ضاحِكًا: ربما كُنَّا كلُّنا مجانين بشكل ما؛ لذلك أقترح أن نعيِّن طبيبًا يقوم بمناظرتنا جميعًا بصورة منتظمة؛ ليتبيَّن في النهاية مَن هم المجانين فينا!

"الرئيسُ المؤْمِنُ" تحت وابِلٍ من النُّكَت

"أقرع بزبيبة ومراته كَسِيبَة"

عبارة مُتداوَلَة أيَّامَ السادات

السادات رجل حاول أن يركب الصَّعْبَ، فرَكَبِهُ الصَّعْبُ، حسب المثل الشعبي اليمني السائر، و"الصَّعْبُ" في اليمن هو الحمار الحرون!

لذلك؛ تعرَّض الرجلُ لسهام التنكيت فور أن تولَّى منصبَ الرئاسة؛ فقد كان له سِجِلٌّ حافِلٌ بالحكايات الغريبة قبل أن يشتهر بإلقائه البيان الأول لثورة ٣٢ يوليو من الإذاعة المصرية، حتى عيَّنَه عبد الناصر "نائِبَ الرئيس" في ٢٠ ديسمبر ١٩٦٩.

ويسجِّل الدبلوماسي الروسي "السوفيتي سابقًا" فلاديمير فينوجرادوف الذي عمل في سفارة بلاده لدى القاهرة لمدة ٩ سنوات، في مذكِّراته: "قد لا يكون من قبيل العبث ما قيل من أن سبب فشل الحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت على مصر، هو وابِلُ النُّكَت التي أطلقها عليه المصريون، فنالت من هيبته، ومن عقله، وحتى من رجولته. الشيء نفسه تقريبًا حدث مع السادات الذي صار هدفًا للتنكيت فور الإعلان عنه رئيسًا للجمهورية خَلَفًا لِسَلَفِه جمال عبد الناصر".

وقبل ساعات من تشييع جنازة عبد الناصر في خريف ١٩٧٠، كان الجثمان مُسَجًّى في بيته بـ "منشية البكري"، وقد اجتمع حوله السادات ومحمد فوزي وعلي صبري وسامي شرف وحسنين هيكل وحسين الشافعي. وفتح أحدهم شُبَّاك الغرفة المطِلَّة على حديقة البيت، فدخلت نسمة هواء خريفية لطيفة، قال "الشافعي" لأحدهم: "يااااه.. شوية هوا يردُّوا الروح يا

أخي"، فأسرع السادات وأغلق الشُّبَّاك!

وبعد وفاته بسنوات، زار عبد الناصر السادات في المنام، فقال له الأخير بفخر: إحنا عبرنا القنال في حرب أكتوبر ٧٣ وحطَّمنا خط بارليف ودخلنا سينا وهزمنا إسرائيل يا ريِّس. قال عبد الناصر فَرِحًا: "دي حاجة تُرُدّ الروح يا أنور"، فقال السادات: "بس بعد كدا حصلت الثغرة"!

هذا "الأضحوكة" رئيسًا لمصر

غير أن الناس الذين نكَّتوا على عبد الناصر حيًّا وميِّتًا، هم الذين اعتبروا السادات في اللحظة التي تولَّى فيها الحكم... نُكْتَة كبيرة.

وفي مذكِّراته التي سَجَّلها رجاء النقاش، قال نجيب محفوظ: "كنت في بيتي عندما أُعلن عن تولِّي السادات مسؤوليَّةَ الحُكْمِ بعد عبد الناصر، وضربت كَفًّا بِكَفٍّ، وأنا غير مصدِّق، وقلت لزوجتي: هذا (الأضحوكة) هل سيصبح رئيسًا لمصر؟".

وحكى لي لواء شرطة متقاعد أنه تسلَّم عمله كضابط صغير "معاون مباحث" بأحد مراكز شرطة المنوفية، بعد وفاة عبد الناصر بأيام، وزاره في مكتبه ذات يوم أحد أعيان قرية تابعة للمركز، كان يَمُتُّ بِصِلَةِ قَرابَةٍ للسيدة إقبال ماضي، زوجة السادات الأولى. وأثناء الحديث سأل الضيف الضابط: "هُوَّه مين اللِّي رِكِب بعد عبد الناصر؟"، أي من تَوَلَّى الحكم، أجاب الضابط: السادات.

هنا ضحك الرجل كأنه سمع نكتة، ثم قال: بس ابن "ست البرين" (وهو اسم والدة السادات) مش هيجيبها البر!

وأضاف الضابط أنه كمسؤول أمني صغير اعتبر هذا الكلام نوعًا من الهزار السياسي البايخ، بِحُكْمِ السنِّ وقِلَّة الخبرة، فتأفَّف أن يسأل الرجل إن كان قال ذلك من واقع "سابق معرفة" مع الرئيس السادات، أم أنه يستظرف؟ غير أن الأيام أثبتت أن الرجل كان على حقٍّ تمامًا.

وفي أعقاب أحداث ١٥ مايو ١٩٧١، أودع السادات بعضًا من رجال عبد الناصر في السجون التي بَنَوها بأنفسهم، ضمن قضية "مراكز القوى"،

استقبل أحد المعتقلات دفعة جديدة من النزلاء منهم، مُتَّهمون في هذه القضية، وأخذ حكمدارُ الحبس (وهو أقدم سجين) يُعَرِّف الموجودين على بعضهم. قال الرجل عن أول نزيل: ده مسجون قديم، اتسجن عشان عارض علي صبري.

ثم قدَّم الرجل الثاني: وده مسجون مستجد، لأنه أَيِّد علي صبري.

وجاء دور الثالث فقال: وده بقى علي صبري!

"الممثِّل المنْفَرِد"

كان السادات ابن بلد من الطراز الأول، داهية، مغامِرًا لا يلوي على شيء، ولا يُلزم نفسه بشيء طوال حياة حافلة امتهن خلالها طيفًا واسعًا من المهن: ضابط جيش، عميل سري للألمان، مناضل ضد الإنجليز، شَيَّال دقيق في فرن بلدي بقرية "مزغونة" جنوب الجيزة، تبَّاع يُحمِّل كُتَل "الدبش" على سيارة نقل في الصعيد، رئيس مجلس إدارة مؤسَّسة صحفية، رئيس مجلس الأمة، نائب رئيس، ثم رئيس الجمهورية بدرجة "رب العائلة المصرية"، كما سمَّته وسائلُ الإعلام الحكومية في عِزِّ مجده.

ويقول روبير سوليه، الكاتب الفرنسي المخضرم في حب مصر: "في يوم ما من أيام الأربعينيات، نشرت المنتجة السينمائية أمينة محمد إعلانًا لتوظيف ممثِّلين جُدُدٍ من طائفة الكومبارس، وسرعان ما كاتبها السادات قائلًا لها: (أنا شاب ممشوق القوام، متين البنية، جميل الملامح، لست أبيضَ، لكني لست أسود كذلك، بل إن سواد بشرتي هو أقرب إلى الحُمرة). وكم كانت خيبته حين لم يتم اختياره".

ونقل الكاتب الراحل محمد زكي عبد القادر عن السادات قوله: "شاءت المقادير أن أُطرد من الجيش، ولم أكن خدمت سوى ٤ سنين، واعتُقِلْتُ عقب طردي مباشرة، وأمضيت أكثر من سنتين ثم هربت من المعتقل، وهنا كان عليَّ أن أمثِّل أدوارًا حقيقية على مسرح الحياة وأنا هارب؛ حتى لا يقبض عليَّ البوليس".

واعترف السادات في مقال له نُشر ٢٨ نوفمبر ١٩٥٥ بجريدة "الجمهورية" أنه بعد فشله في الالتحاق بأي عمل سينمائي "آثر التمثيل منفردًا" في واقع

الحياة، فأطلق لحيته وتدروش وأعطى لنفسه لقب "الحاج" دون أن يؤدِّي فريضة الحج: دعوت نفسي "الحاج محمد" وتركت لحيتي؛ لألهو، لكنني سرعان ما مللت ذلك، بعدما لم يكترث بي أحد!

كما شارك الرجل في التنظيمات السرية ضد الاحتلال البريطاني، ثم أصبح عضوًا نَشِطًا ومُهِمًّا في جمعية "الحرس الحديدي" التابعة للقصر الملكي، والتي اتَّخَذَت أسلوبًا في العمل على غرار أساليب الجمعيات النازية.

وتُروى عن السادات في تلك الفترة حكايات لها العجب، منها ما حكاه الدكتور محمود جامع صديق طفولته قائلًا: "روى لي السادات في جلسة ذات مساء بمنزله في المنيل، أن الفريق عزيز المصري، المفتش العام للجيش وقتذاك، الأب الروحي لأعضاء تنظيم "الضباط الأحرار"، طلب منه في أواخر سنة ١٩٤٢ البحث عن طائرة صغيرة تقلُّهما إلى منطقة سيطرة الجيش الألماني المتمركز في صحراء مطروح أثناء الحرب العالمية الثانية، ومن ثَمَّ يطيران بطائرة ألمانية أكبر حجمًا إلى رشيد عالي الكيلانى في العراق؛ للقيام بثورة (من هناك) ضد الإنجليز والملك والسراي!".

ويضيف "جامع": "قال السادات في حديثه إنه تذَّكر، عندئذ، أن عبد المنعم عبد الرءوف الضابط بالقوات الجوية ما زال في الخدمة، وأنه كان زميل دفعته في الكلية الحربية. واتَّصل به السادات، ووافق "عبد الرءوف" فورًا، واتَّفقا على أن تُقلع الطائرة في ساعة معيَّنَة، لتصل الطائرة في وقت محدَّدٍ مُتَّفَقٍ عليه مع الألمان، حتى لا يظنُّوا أنها إنجليزية فيتم ضربها بالمدافع المضادة للطائرات.

وكان الضابط النوبتشي (المناوب) في الليلة التي تحدَّدت لتنفيذ العملية

هو البكباشي حسين صبري ذو الفقار، شقيق علي صبري، وتمَّ الاتفاق على تسهيل مهمة إقلاع الطائرة من مطار القاهرة بمعرفة (حسين) الذي تطوَّع بالذهاب معهم.

وبالفعل أقلعت الطائرة في الموعد، ولكنها هبطت اضطراريًّا بعد نحو ربع ساعة بسبب خطأ فني، وسقطت فوق حقل مزروع بأشجار البرتقال في "قليوب"، على بعد ٢٠ كيلو مترًا فقط من القاهرة. وكادت الطائرة المنكوبة تتحطَّم، فنجا الركَّاب بمعجزة، وتعرَّض عزيز المصري لإصابات طفيفة، وحوكِمَ عبد المنعم عبد الرؤوف وحسين صبري عسكريًّا، وتمَّ فصلهما من الخدمة. أمَّا السادات فلم يمسسه سوء؛ لأنه ببساطة لم يركب الطائرة، وترك (أباه الروحيَّ) لمصيره!".

الموت "وِفْقًا لِلَّائِحَة"

في كتابه الطافح بالكراهية والمرارة "خريف الغضب"، ذكر حسنين هيكل أن السادات قال للرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر أثناء سهرة خاصة، على شرف توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل في معسكر "كامب ديفيد" بالولايات المتحدة سنة ١٩٧٨: "إن الناس في العالم ينظرون إليَّ على أنني خليفة عبد الناصر، وهذا ليس صحيحًا؛ فأنا لا أحكم مصر طِبْقًا لأسلوبه، بل أحكمها طِبْقًا لأسلوب رمسيس الثاني"، ولكنه لم يَقُلْ ما هو أسلوب رمسيس الثاني!

وتعرَّض السادات لسخرية عبد الناصر عَلَنًا، رغم أنف تطلُّعاته الفرعونية المتأخِّرة، ففي اجتماع الأمانة العامة لـ "الاتحاد الاشتراكي" في ٥ يناير ١٩٦٥، قال الزعيم الراحل: لقد طلبت من جريدة الأهرام أن تنشر مناقشات مجلس الأمة، (وكان السادات هو رئيس المجلس) ليه؟ لأني أريد أن أعطي الحياة الديمقراطية السليمة التي ننادي بها، قيمة حقيقية، وأن نترك من يشاء أن يتكلم في أي شيء دون أن نسدَّ عليه الطريق، ولا نخاف، ويُحال كلامه إلى اللجنة، ثم إن رئيس المجلس يقدر يموِّت أي حاجة وفقًا للَّائحة"!

ومن واقع تجربة شخصية مع السادات، قال يوسف إدريس، وهو الذي كتب للرئيس الراحل ٣ كُتُبٍ نشرها السادات باسمه: "حين أرادت ثورة يوليو أن تخلق صحافة مصرية اللحم والدم والثورة، عهدت للسادات بهذه المهمة، وعرفته أنا وكثيرون غيري أثناء عملنا معه في جريدة الجمهورية سنة ١٩٥٨، ولكني آثرت الابتعاد عنه تمامًا بعد عام فقط، فقد قَبِلْتُ أن أعمل معه إيمانًا مني بأعظم أحداث حياتي، قيام ثورة حقيقية في مصر أخيرًا، ثورة وإن بدت عسكرية كالانقلابات السورية إلَّا أن الحركة الوطنية المصرية ظلَّت تُحوِّر

فيها وتُغَيِّرها، حتى جاء الامتحان النهائي في تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر، إنها الثورة بروح عام ١٩٥٦، حين بدأت مصر الشعب والمثقفين تقبل وتتحمَّس وتندفع بقوة، واضعةً نفسها تحت تصرُّف الثورة وقادتها. من خلال هذا المنظار كنت أرى السادات بطلًا من أبطال ثورة يوليو، لكن التعامل معه كشف لي أنه لا بطل ولا يحزنون، بل إن كثيرًا من خصاله لا تصلح أن تكون لرجل عاديٍّ بسيط، فما بالك بعضو مجلس قيادة ثورة، وبطل ثورة!".

وحكى وجيه أباظة، أحد رجال الصف الثالث من "الضباط الأحرار"، إن عبد الناصر زار السادات خلال صيف سنة ١٩٧٠ في منزله بقرية "ميت أبو الكوم" منوفية، وحضر هذا اللقاء المهندس أحمد سلطان، محافظ الإقليم آنذاك. وأثناء تجوال الرجال الثلاثة ومعهم أباظة في المنزل، قال عبد الناصر فجأة: إيه ده يا أبو الأنوار، انت وضَّبْت البيت أوي.

رد السادات: كله من فضل سيادتك يا أفندم.

إزاي، مش فاهم؟

ده من مبيعات كتابي "يا ولدي هذا عمُّك جمال".

قال عبد الناصر: حمير مين الِّلي اشتروا الكتاب ده؟!

وإذا أردت المزيدَ من مفاتيح شخصية السادات، فإن للدبلوماسي المحنَّك الراحل د. بطرس غالي رأيًا طريفًا، إذ رأى أن عبد الناصر، مثل قيصر، كان يفضِّل أن يكون الأوَّلَ والأعلى رُتْبَةً والأكبر مَرْتَبَةً في قريته، أي في العالم الثالث. أمَّا السادات فهو يقبل بأن يكون الثاني في روما، أي في عاصمة من عواصم الدول العظمى.

ووصف شمعون بيريز، السياسي الإسرائيلي الشهير، "حالة السادات" بدقَّةٍ أكثر، قائِلًا إنه "كان يرى نفسه نبيًّا للسَّلام، ومُحارِبًا مُظَفَّرًا في الوقت نفسه، أي غاندي ونابليون في رجل واحد. كما قال لي هو نفسه أكثر من مرة، فهما الشخصان اللذان يُكِنُّ لهما أكبر تقدير، ففي جلبابه القروي الفضفاض كان يقوم بدور غاندي، أمَّا في زِيِّه العسكري فكان يؤدِّي دور نابليون المصري".

ولم يكن السادات وَفِيًّا لسيِّده ووَلِيِّ نعمته وباني بيته بالمرة؛ فقد قال عن عبد الناصر خلال حياته في كتاب "يا ولدي... هذا عمُّك جمال": "لقد اعتاد أن يكلِّمنا ويُعَلِّمنا كلَّ شيء، وكُنَّا جميعًا نُكِنُّ له الإعجابَ العظيم. إنه كائن استثنائي، وهو رجل طبعه القدر".

وبعد سنوات من وفاته قال عنه ساخِرًا: "لقد كان عبد الناصر يتابع كل شيء، وأراد الاهتمام بكل شيء، كانوا يوقظونه في نُصِّ الليل إذا شبَّ حريق في إحدى القرى، ويبدأ إجراء الاتصالات التليفونية، بالمحافظ، برجال الإطفاء، بمصطفى أمين في جريدة الأخبار، وبهيكل في الأهرام، وكأنه يدير معركة ستالينجراد حتى طلوع النهار"!

الرئيس يشكر "السِّت نعيمة"

سعى السادات لتغيير مصر رأسًا على عَقِب بعد أن استتبَّ له أمر الحكم، لكنه لم يغيِّر نظام "الاستفتاء العام" الذي اخترعه عبد الناصر بدل الانتخابات الرئاسية، حيث كان يُطْرَحُ اسمه هو وحده للاستفتاء العام على الشعب، الذي عليه أن يختار بين "نعم" و"لا". ومع أن نسبة المشاركة في هذه الاستفتاءات كانت تقترب من الصفر، تأتي النتيجة دائمًا بتجديد الثقة في السادات رئيسًا للجمهورية بنسبة تزيد على ٩٠٪، وكأنه طالب متفوِّق في الثانوية العامة بمقاييس ذلك الزمن.

ومن أشهر التعابير الشعبية المتداوَلة في تلك الفترة، أو "الإفِّيهات" بِلُغَةِ هذه الأيام، قول السادات في خطاب تجديد الثقة بعد ظهور نتيجة الاستفتاء: أتوجَّه بالشكر لشعب مصر العظيم على هذه الثقة الغالية، وأشكر كل من قالوا "نعم"، أمَّا "نعيمة" فلها مني شُكْرَان؛ لأنها قالت "نعمين"!

وقيل إن السادات استدعى الكاتب الراحل محمود السعدني التي نُسِبَ له تأليف عشرات النكت منذ عهد عبد الناصر، وحتى عصر السادات نفسه، فلمَّا جاء سأله: كيف تؤلِّف النُّكَت ضدِّي يا ولد يا "سعدني" وأنا رئيس اختاره الشعب عبر الاستفتاء العام أمام سمع وبصر العالم بنسبة ٩٠,٠٤٪؟ قال السعدني: والله يا ريِّس النكتة دي مش من تأليفي!

وفي أحد كتبه عن سنوات سجنه، قال مصطفى أمين إنه سأل عبد الناصر في حوار غير مُخَصَّص للنشر، وكانا لا يزالان صديقَيْن مُقَرَّبَيْن: شايف مين من "الظباط الأحرار" ممكن يخلفك في الحكم ذات يوم؟ رد الزعيم الراحل: السادات. سأله: ليه السادات تحديدًا؟ قال عبد الناصر: لأنه أكثرنا قدرةً على التآمُر.

وتأكَّد حَدْسُ عبد الناصر الغريب بعد ذلك بأعوام طويلة، حين أطاح السادات بخصومه جميعًا، بضربة معلم واحدة عام ١٩٧١، بعد أن نافسوه في التآمر، وكان من بين المتهمين في هذه القضية محمود السعدني، الذي أكَّد أكثر من مرَّة أن كل تهمته كانت "شوية نُكَت".

وحكى السعدني: "أثناء التحقيقات لقيت اتهامات غريبة إني تآمرت مع ناس على إننا نقتل رئيس الجمهورية، احنا هنقتل الرئيس؟ قال إيه... هترموا عليه قنابل وهو ماشى قدام الاتحاد الاشتراكي، يعني كلام ميدخلش العقل، والحكاية كلها كانت نُكَت قلتها ف التليفون، يعنى المرحوم فريد عبد الكريم كان عضو الاتحاد الاشتراكي في الجيزة، قال لي: يعنى انت فرحان قوي عشان رشَّحوا السادات لرئاسة الجمهورية، قلت له: إيه يعنى؟ فيها إيه، ما هو زَيِّنا... أومَّال نجيب خواجة يحكمنا؟ قال لي: رَكِّبُه فوق دماغنا زي ما ركِّبْت عبد الناصر، قلت له: ما اظْرَطْ من سِتِّي إلَّا سيدي، عبد الناصر مَوِّتْنا من الخوف فـ ١٨ سنة من حُكْمُه، ويظهر إن السادات هيموِّتنا من الضحك بعد ١٨ يوم".

بدأ السادات رجل المؤامرات و"اللفتات" البارِعَة عهدَه -بعد أن أدَّى اليمين الدستورية- بالانحناء بقوَّةٍ لتمثال عبد الناصر الذي كان مُقامًا في البهو الرئيسي لمجلس الأمة، وهي الانحناءة التي نالت استهجان الرأي العام بشدة، فلم يكن مطلوبًا من الرجل أن يتدنَّى إلى هذه الدرجة من "الوثنيَّة".

وكان ظاهر تلك الحركة المسرحية من "طالب تمثيل" قديم هو الاحترام والتبجيل، وباطنها أن: مَن كان يعبد عبد الناصر فإن عبد الناصر قد مات، بل أصبح صَنَمًا ينبغي تحطيمه في "دولة العلم والإيمان" الجديدة، وهو الشعار

الذي تحوَّل فيما بعد إلى برنامج تليفزيوني مشهور قدَّمه الكاتب الراحل د. مصطفى محمود.

ووصف السادات في إحدى خُطَبِه عام ١٩٧٢ الفترةَ التي سبقت الحرب بـ "سنوات الضباب"، فانتشرت نكتة عن عربجي كان يقف بعربة كارُّو عند مدخل كوبري الجامعة ذات صباح، وخلفه طابور طويل من السيارات، فأسرع إليه ضابط المرور شاخِطًا فيه: واقف ليه ومعطِّل الطريق يا جدع انت؟ ردَّ العربجي: واقف عشان الدنيا ضباب يا باشا. وكان الجو صَحْوًا، فسأله الضابط باستغراب: انت هتستعبط.. هو فين الضباب ده؟ قال العربجي: اسأل الحمار!

وبعد نحو سنوات من حُكْمِ السادات، ورغم أنف شعار "أخلاق القرية" الذي رفعه الرجل، أصاب التَّدَهْوُرُ كل شيء في مصر. وكتب رائِدُ الفن الشعبي زكريا الحجاوي رسالة إلى محمود السعدني، الذي كان مَنْفِيًّا خارج مصر بإرادته بعد خروجه من السجن، جاء فيها: "لم تتغيَّر مصر يا محمود، ولكن الذي تغيَّرَ هم ناسها، أو بمعنى أصح الذين تغيَّروا هم بعض الناس الذين يَطْفُون على السطح، والذين يتمتَّعون بألف وجه. وهم يقدِّمون وجهًا لعبد الناصر، ووجهًا آخر للسادات. ولو ضربة حظ أصابتك يومًا وأصبحت مُهِمًّا في مصر، فإن هؤلاء الناس أنفسهم سوف يرتدون وجهًا ثالثًا لكَ، وسوف يكتشفون عندئذ كم أسهم الحاج برعي السعدني -جَدُّكَ- في حضارة مصر الحديثة، ولأنني صديقك سيكتشفون أيضًا كم أسهمت الست بهانة الحجَّاوي، رحمها اللهُ، مع برعي السعدني في صَدِّ الغزو الصليبي عن مصر"!

"أقرع بزبيبة ومراته كسيبة"

كان السادات -بِحُكْمِ طبيعته الشخصيَّة الانبساطيَّة- حريصًا على سَماعِ النُّكَت المتداوَلة خلال فترة حكمه، وخصوصًا السياسية منها؛ ليعرف ما يقوله الشارع المصري عن رجال الحُكْم.

ولك أن تضع تحت "شخصيته الانبساطية" هذه خَطًّا اعتراضيًّا؛ فقد عُرِفَ عن السادات أنه كان يُدَخِّن الحشيش، ويدخل في نوباتِ "تَرْيِقَة" على معارضيه السياسيِّين، بمن فيهم كبار الأدباء والمثقَّفين.

وفي فبراير ١٩٧٣، قبل حرب أكتوبر بـ ٨ شهور، وقَّع توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وثروت أباظة وعلي الراعي وآخرون- بيانًا رفضوا فيه حالة "اللا حرب واللا سلم" مع إسرائيل. وغضب السادات بشدَّة من الموقِّعين على البيان، ومنعهم من الكتابة في الجرائد القومية حيث كانوا يعملون، واستلمهم "تريقة" في جلساته الخاصة، فقال: "دا حتى الحشَّاش اللي اسمه نجيب محفوظ وقَّع معاهم". ولمَّا عَلِمَ نجيب محفوظ بذلك قال: "ليتكلَّمْ أيُّ أحدٍ غير السادات عن الحشيش"!

ومن غرائب الرئيس الراحل أنه كان في أوقات الأزمات السياسية الكبرى يستدعي أنيس منصور وفايز حلاوة إلى استراحاته الخاصة الكثيرة البعيدة عن ضجيج القاهرة، كلًّا على حِدَة؛ ليحكي له كلَّ النُّكَت المتداوَلة، فَضْلًا عن نمائم وطرائف الأوساط الراقية، وهو الوسط الاجتماعي الذي سحر الساداتَ منذ شبابه الفقير في "ميت أبوالكوم"، فيخرج بعد هذه الجلسات بِحَلٍّ للمُعْضِلَةِ السياسية التي كان يفكِّر فيها.

وفي حوار خاص أُجري معه في منزله بـ"الهرم" قال لي الراحل حمادة سلطان،

صاحب لقب "منولوجست الرئيس"، الذي كان ابن نكتة محترِفًا بحكم عمله- إن مؤسسة الرئاسة كانت تستدعيه في بعض الليالي إلى استراحة "القناطر الخيرية"؛ لكي يحكي لـ "السادات" آخِرَ نُكَتٍ، بما في ذلك النُّكت السياسية التي تسخر منه هو شخصيًّا، أو من المسؤولين الكبار في ذلك العهد، طالبًا منه ألا يتَحرَّج أو يخاف من قول أي نكتة مهما كانت قاسية، أو بذيئة: "بلاش تحط رتوش يا ولد يا حمادة".

كان "سلطان" بحُكْمِ المهنة ابن نكتة مخضرَمًا، يستطيع أن يسيطر على مُحَدِّثه بِسَيْلٍ من القفشات الرائقة من وحي اللحظة؛ ولذلك استظرفه السادات، وكان يستدعيه كل فترة؛ طَلَبًا للضحك عندما تتأزَّم الأمور السياسية، كما كان يجالس المقاولَ الشهير المهندس عثمان أحمد عثمان لمآرِبَ أخرى.

وفي تلك الفترة دخلت السيدةُ جيهان السادات المُعْتَرَكَ العامَّ بقوَّةٍ، وأعطَتْها كتائِبُ النفاق الإعلامي لقبَ "سيدة مصر الأولى" -والأخيرة- وصار لها نفوذٌ سياسيٌّ ونشاطات خيرية واسعة النطاق، ومشاريع خاصة بها، بأسماء آخرين؛ لذلك كانت هي وزوجها هدفًا للتعابير الشعبية الساخرة، ومنها ما قاله "سلطان" للرئيس بعد إلحاح: "أقرع بزبيبة.. ومراته كَسِّيبة"!

وقالت السيدة "جيهان" في حوار صحفي مع بلال فضل إن زوجها كان "يقابل تنكيت الناس عليه بالابتسام، وكان يعلم بكل النُّكَت التي تُقال عنه في الشارع، وكُنَّا نضحك عليها جدًّا؛ لأن ده نوع من تنفيس الناس عن نفسها، بدليل واقعة سأرويها لك. كُنَّا في لندن في عشاء رسمي مع مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا في ذلك الوقت، وكانت تحكي لـ

(أنور) أن المسرح الإنجليزي يعرض مسرحية، يسخر فيها من تاتشر، فضحك وقال لها: وأنا عندي في مصر بتطلع عني نُكَت كتير، آخرها نكتة لسَّه سامعها مافيش من كام يوم، أنا راجل ملتزم بالصلاة، ومعروف إني متديِّن، والراجل المتديِّن بتطلع له من كُتْر الصلاة حاجة زي (زبيبة) في جبهته، فالناس عايزه تتريَّق، وتقول إني لا متديِّن ولا حاجة، فقالوا إني نزلت من البيت مرة وكنت مستعجل، وبعدين بَصِّيت من تحت البيت وناديت بصوت عالي: يا جيهان احدفي لي العصاية والزبيبة!".

وربما لهذا السبب، كان السادات حريصًا على أن يقرأ بانتظام تقرير الأجهزة الأمنية عن النُّكَت المتداوَلة، وكان يسمِّيها "نكت الاصطباحة". وبلغ من اعتقاد الرئيس الراحل في أهمية النِّكات، وقدرتها على بيان آراء الناس، أن نُكْتَةً حكاها له حمادة سلطان ذات ليلة في استراحة "القناطر" كانت السببَ في صدور قرار جمهوري، وهي من النُّكَت التي كان يفاخِر بها المنولوجست الراحلُ.

تقول النُّكْتَة إن حارس "حديقة الحيوان" بالجيزة تشكَّك في اتنين من بلديَّاتنا الصعايدة، كل يوم ييجوا الجنينة ويقفوا بالساعات أمام قفص النسر، فقبض عليهما للاشتباه.

وفي القسم، سألهما الضابط: بتقف بالساعات ليه قُدَّام قفص النسر ليه يا جدع انت وهوَّ؟، قالا في نَفَسٍ واحد: نفسنا نعرف بيختموا بيه ازَّاي.

وبعد أيام قليلة من سَمَاعِه لهذه النكتة، صدر قرار جمهوري بتغيير "ختم شعار الدولة" من النسر الذي أقرَّه عبد الناصر تَيَمُّنًا بصلاح الدين الأيوبي، إلى الصقر؛ تَيَمُّنًا من السادات بحمادة سلطان!

ويؤكِّد منتصر جابر في كتابه "اضحك على الرئيس" أن المنولوجست الراحل كان يفاخِر كذلك بأنه السبب في زيادة رواتب عساكر الشرطة خلال السبعينيات؛ فقد ألقى "سلطان" نُكَتًا كثيرة في حفل زفاف ابنة المشير أحمد إسماعيل وابن محمود أبو وافية، عضو "مجلس الشعب"، ثم قال فجأة: مرة اتنين بيلعبوا شطرنج على قهوة، العسكري رفض يتحرَّك من الخانة بتاعته إلّا لما ياخد "شِلِن"، أي خمسة قروش بعملة ذلك الزمان.

لم يضحك السادات على هذه النكتة، وفوجئ حمادة سلطان بعد انتهاء فقرته في الحفل بوزير الداخلية ممدوح سالم وكان أحد الحاضرين، يستدعيه ويطلب منه التوجُّهَ فورًا إلى المنضدة التي يجلس عليها الرئيس، فشعر "حمادة" أنه ارتكب خطأً فاحشًا، وأن تلك النكتة لا تناسب المقام أبدًا، وذهب مرتعشًا إلى السادات الذي هدَّأ رَوْعَه، وسأله عن مغزى النكتة.

قال "سلطان" إن أجور عساكر المرور زهيدة جدًّا؛ ولذلك يُضطرُّ بعضهم لأخذ هذه الرشوة الصغيرة "الشِّلِن" لتمشية الحال، وهنا قال السادات ببساطة لوزير داخليته: "سامِعْ يا ممدوح؟ ابقوا زوِّدوا مرتَّبات العساكر شوية". وبعد أيام صدر قرار الوزير بزيادة أجور العساكر في كل قطاعات "الداخلية".

"البابا شنودة التلمساني"

اشتهر السادات بأنه كان يفقد تركيزه تمامًا أثناء خُطَبِه العامَّة على الهواء مباشرة لأكثر من دقيقة، ويظلُّ خلال ذلك ينظر في سقف القاعة، ويمارس هواية التحليق في الأعالي، ثم يردد "آ آ آ... آ آ آ آ"؛ بحثًا عن الكلمة التي تاهت منه، حتى يتذكَّر أخيرًا، فيقع أحيانًا في أخطاء قاتلة.

وفي إحدى أشهر الخُطَبِ التي عَرَّج فيها السادات إلى أعالي الفراغ، جمع الرجل بمعجزة بين عمر التلمساني مرشد جماعة "الإخوان" الراحل، والبابا شنودة بطريرك الأقباط المتنيِّح، وقال في سياق حديثه عن خلافه مع البابا والمرشد في وقت واحد: "أنا قلت للبابا آ آ آ آ آ... عيب اللي بتعمله ده يا تلمساني"!

وكان البابا شنودة وشيخ الأزهر والسادات في رحلة على طائرة صغيرة، وحدثت مشكلة في المحرِّكات استدعت تخفيفَ الحمولة بإلقاء أحد الركَّاب من الطائرة وإلَّا ستسقط، فقال لهما الرئيس: هسأل كل واحد منكم سؤال واللي يجاوب غلط هرميه من الطيَّارة.

وبدأ بشيخ الأزهر فسأله: قل لي يا مولانا ما هي "بلد المليون شهيد"؟

قال الشيخ: الجزائر يا ريِّس.

فنظر السادات إلى البابا شنودة وقال: انت بقى يا ابونا عليك تقول لنا أسماء "المليون شهيد"!

وذكر الصديق الراحل المهندس أمين جرجس صادق، وكان أحد ظُرفاء زمنه، أن غُلاةَ الأقباط يحكون هذه النكتة بشكل "أكثر طائفيَّةً" من ذلك، والتعبير له، إذ يقولون إن السادات سأل السؤال الأول "ما هي بلد المليون شهيد"

للبابا شنودة وليس شيخ الأزهر. فلمَّا أجاب البابا إجابة صحيحة، وفشل الشيخ في تعداد "أسماء المليون شهيد"، رمى البابا برضه من الطيَّارة!

ولم يكن السادات بشخصه فقط عُرْضَةً للتنكيت، بل إن مؤسسات الدولة نفسها تعرَّضَت خلال عهده لنُكَتٍ كثيرة، وحين تقرَّر تغيير اسم البرلمان من "مجلس الأمة" إلى "مجلس الشعب"، كما حدث مع ختم النسر، عقد الرئيس اجتماعًا موسَّعًا مع الوزراء المعنيِّين وأعضاء المجلس لهذا الغرض، وسألهم رأيهم.

قال نائب: أنا باقترح يا افندم نسمِّيه "المصطبة" تمشِّيًا مع أخلاق القرية، وقال آخر: لأ... نسمِّيه "الديوان" أحسن يا ريِّس... ماشي مع لقب رب العائلة المصرية. وهنا التفت السادات إلى النبوي إسماعيل وزير الداخلية، وسأله: إيه رأيك يا نبوي؟

ردَّ النبوي: باقول نسميه "باتا" يا افندم.

- ليه؟

- عشان بنجيب من كل دايرة انتخابية "جوز"!

وكان تصرُّفات السادات أكثر فكاهةً، أحيانًا، من التنكيت ضدَّه، وضدَّ نظامه؛ ففي سنة ١٩٧٨ عقد السادات اجتماعًا منفردًا بمقرِّ الرئاسة مع مصطفى كمال حلمي، وزير التربية والتعليم، وكان المفترض أن يناقش الاجتماع "استراتيجيَّة التعليم في مصر حتى عام ٢٠٠٠"، فقال الرئيس لوزيره ببساطة: الناس اليومين دول مش مبسوطة، وأنا عايزهم ينبسطوا في امتحانات الثانوية، نجَّح العيال يا حلمي!

وممَّا يُرْوَى عن دهاء السادات أنه التقى بالمصادفة مع السياسيَّة الهندية

الراحلة أنديرا غاندي، أثناء زيارة لأمريكا، فاستوقفته "غاندي" قائلةً: فخامة الرئيس، نريد إقرارَ عقوبة في القانون على أي مصري يقول لزميله "إنت فاكرني هندي"؛ لأن معناه أننا مضرب المثل في الغباء، وهو أمر غير مقبول في الأعراف الدولية.

اعتذر لها السادات بِلُطْفٍ نيابةً عن "شعبه"، ثم قال: عشان خاطرك يا أنديرا يا بنتي أول ما ارجع مصر هطلَّع قرار جمهوري فورًا، وكل اللي هيقول كده من هنا ورايح هيدفع ١٠٠٠ جنيه غرامة. شكرته "أنديرا" بشدَّة على استجابته السريعة، ثم قالت: وأرجو أن يتمَّ تحويل مبلغ الغرامات سنويًّا إلى الخزانة الهندية. قال لها السادات: ليه؟ إنتي فاكراني هندي!

فُكاهات الشيخ الضَّرير

قيل قديمًا، من كلام كان يدور في أوساط السلطة: لا شيء أشدَّ خطورةً من رَجُلٍ مستقيم!

وفي كتاب "النبي والفرعون" يقول الصحفي الفرنسي جيل كيبيل: "كان من المستحيل في الأيام الأخيرة من عهد السادات، أن يتجوَّل المرءُ في القاهرة دون سماع صوت (الشيخ كشك) الراعد في مكان ما، بحنجرته التي لا تُضاهَى، واستقامته المدهشة، وروحه الجسور، وفكاهته المفعمة بالشراسة لانتقاد السلطة الحاكمة في شخص السادات نفسه، أو الصلح مع إسرائيل، أو تواطؤ الأزهر. ولذلك؛ كان العرب يسمعون خُطب الشيخ كشك بشغَفٍ في القاهرة، وفي بغداد، وتونس، وحتى في مارسيليا".

واستلم "الشيخ كشك" السادات في خُطب الجمعة التي كان يلقيها من أحد مساجد منطقة "حدائق القبة" بالقاهرة، نقدًا وسخرية، بأسلوب صدامِيٍّ لم يسبق له مثيلٌ في انتقاد حُكَّام مصر.

وكان الرجل كفيفَ البصر، لكنه ببصيرته الكاشفة استطاع أن يلتقط كل كبيرة وصغيرة في أرض مصر خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، ولم يترك شيئًا إلَّا سَخِرَ منه على الملأ في خُطَبٍ مُسَجَّلَةٍ. لقد تمثَّلَت في شخصية "كشك" ظاهرةٌ سياسيَّةٌ شعبيَّةٌ لم تعرفها مصر منذ أيام عبد الله النديم، الأديب الأُدَباتي، وهي شخصية "الداعية الشعبي" المتحدِّر من الأدبيات الدينية الثورية.

نال "كشك" بعد حصوله على "العالِميَّة" الأزهرية بتفوُّق، وهي تعادل درجة الدكتوراه، تكريمًا رسميًّا من الدولة، بجائزة مالية ودرعٍ سَلَّمهما له

عبد الناصر بنفسه في "عيد العلم" عام ١٩٦١. ورغم ذلك اعتُقِلَ الشيخ مرَّاتٍ عديدةً في العهد الناصري، كان أطولها سنتين قضاهما في "السجن الحربي" بتهمة التعاطف مع جماعة "الإخوان"، ثم فترات اعتقال متقطِّعَة، حتى أُطلق سراحه عام ١٩٦٨ بعد سنة من هزيمة ٦٧.

بدأت شهرة "كشك" الذي أُطْلِقَ عليه لقب "أسد المنابر" في منتصف عهد السادات، فعرفه الناس خطيبًا مُفَوَّهًا، لاذِعَ النكتة. ولذلك انتشرت تعليقاته الساخرة في كل مكان، وباتت بمثابة نُكَتٍ من نوع خاص أو "إفيهات" يتناقلها المصريون في أحاديثهم، ومن ذلك الشعر مجهول المؤلف الذي كان "كشك" يردِّده كثيرًا بصوته المتهكِّم:

يا بلدنا يا عجيبة فيكي حاجة محيَّراني

نزرع القمح في سنين، تطلع "الكوسة" ف ثواني!

ورغم أن "الشيخ كشك" لم يكن واسع الثقافة، بل كانت أغلب ثقافته غير الأزهرية سمعيَّةً في المقام الأول، كان الناس يتلقَّفون خُطَبَ الشيخ المسجَّلة على شرائط كاسيت ويحتفظون بها مسلسلة ومُرَقَّمة، وهي نحو ٢٥٠٠ خطبة على الأقل، ليس باعتبارها مواعِظَ دينيَّةً بالمعنى المألوف لدى مشايخ نواقض الوضوء من الأزهريين التقليديين؛ بل لكونها خُطَبًا سياسيَّةً من الطراز الأول؛ فقد كان الرجل يوجِّه لسانه السَّليطَ إلى دولاب الدولة، بدءًا من أصغر خفيرٍ نظاميٍّ حتى رئيس الجمهورية، بشجاعة منقطعة النظير، فلم يرهبه الاعتقال في العهدَيْن: الناصري والساداتي.

ومن طرائف "كشك" المشهورة عن السجون والمعتقلات في العهدَيْن، قوله إن "جراية السجن"، وهي وجبة الطعام اليومية الرديئة المقَدَّمة للمعتقلين،

لم تكن "فول مسوِّس" ممَّا يأكله عموم المصريين حتى الآن، بل كانت من كثرة ما بها من حشرات "سوس مفَوِّل"!

وقُبِضَ عليه ذات مرة، وسأله وكيل نيابة أمن الدولة العليا الذي يحقِّق معه الأسئلةَ التقليديَّةَ المعروفة في بداية التحقيق: اسمك؟ أجاب: عبد الحميد كشك، سنك؟ ردَّ: ٥٨ سنة، صنعتك؟ قال: مساعد طيَّار!

وعقد الإعلام الحكومي، وقتها، مقارنةً في غير محلِّها بين السادات والصحابي الجليل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في مجال العدل والتقوى. ودلَّل كُتَّابُ المقالات في الصحف القومية على هذه المقارنة بأن: الرئيس الراحل حارب اليهود فانتصر، وجنح للسِّلْم عندما جنحوا له، ووعد فأوفى، وحكم فعدل.

وباستثناء "أمِن فنام"، فإن السادات إمامٌ عادِلٌ مثله مثل "ابن الخطاب" رأسًا برأس، ناهيك عن كون الأخير يخاف الله، بينما السادات -حسبما قالت النكتة- لم يكن يخاف أحدًا!

وفي إحدى خُطَبِه ذات جمعة، سخر الشيخ أحمد المحلاوي، الخطيب السكندري المعروف، من ذلك اللقب "إمام عادل"، خصوصًا في ظلِّ الفساد الذي ظهر في بَرِّ مصر بما كسبت أيدي أعوان الرئيس وأهل بيته، حيث تردَّدت على لسان السادات نفسه عبارةً شعبيَّةً مُنْتَحَلَةً تقول "اللي مش هيغتني في عهدي هيفضل طول عمره فقير". وأكَّد المحلاوي في خطبته بناء على هذه المعطيات أن السادات لا يستحقُّ لقب "إمام عادل" ولكنه في الحقيقة "عادل إمام"!

وبعد ساعات من هذه الخطبة الجريئة، أُلقي القبض على المحلاوي بلا

تهمةٍ أو محاكمة؛ فقد اغتاظ السادات من ربط اسمه باسم الممثل عادل إمام، وكان هذا ما زال يمثِّل أدوار "الهلفوت" ولم يمنح نفسه بعد لقب "الزعيم". وقال الرئيس الراحل في خطبة عامَّة: "وآدي الشيخ بتاع إسكندرية اللي اتكلِّم على أهل بيتي مرمي في السجن زي الكلب".

وتحدَّى "الشيخ كشك" الرئيس في أول خطبة جمعة من مسجده في حدائق القبة، وندَّد من على المنبر باعتقال المحلاوي، ثم تساءل بطريقته اللاذعة: لماذا اعتقلوا شيخ الإسكندرية؟ والله إني لأتلفَّت حولي (وهو الضرير) فلا أجد أي إمام عادل، ولكني أجد عادل إمام!

وكانت خُطَبُ "الشيخ كشك" التي يمكن اعتبارها نموذجًا فريدًا للسخرية الشعبية، مُوَشَّاةً في احترافيةٍ عالية بِسُخْرِيَةٍ حرِّيفةٍ من كبار السياسيين في عصر السادات؛ ما جعلها تنتشر على شرائط كاسيت في كل أنحاء مصر، بل إن هذه الشرائط وصلت إلى دولة ماليزيا حسب تأكيدات أحد الدبلوماسيين وقتها.

وكان من عادة السادات أن يبدأ خُطَبَه العامَّة بقوله "باسم الله... باسم الشعب"، فما كان من الشيخ كشك إلَّا أن قال له في إحدى خطب الجمعة: "أَكْمِلْ البسملة يا سادات، أنقصك الله".

وزادت حِدَّةُ هجوم الشيخ على الرئيس بعد توقيع اتفاقية "كامب ديفيد" مع إسرائيل عام ١٩٧٨، حيث علَّق "كشك" من فوق منبره في حضور آلاف المصلِّين قائلًا "إن السادات في ضلال مبين"، وظلَّ يهاجمه بضراوة في كل مناسبة، وبلا مناسبة.

في المقابل، هاجم الرئيس الشيخ بعد ذلك بالاسم في خُطَبِه السياسية، وحكى

الشيخ في كتاب له بعنوان "قصة أيامي" أن السادات قال في إحدى خُطبه: "وانتو طبعًا عارفين الشيخ كشك بيعمل إيه". لكنه لم يَقُلْ أنا باعمل إيه!

وخضعت خُطَب "كشك" للمراقبة الأمنية المشددة. ومع ذلك قال الشيخ في ميكروفون المسجد بمنتهى الهدوء ذات جمعة بعد النداء بإقامة الصلاة: "إخوانّا بتوع المباحث اللي ف الصف الأول ياريت يتقدِّموا شويَّة لقُدَّام، عشان إخوانهم المصلين ف الخارج يعرفوا يصلُّوا جوَّه المسجد"!

ولم تقتصر نُكَت الشيخ السياسية على الوضع الداخلي في مصر، بل إنها طاولت أعلى هيئة دولية في العالم. قال الشيخ في كتابه: "إذا احتكمت دولتان صغيرتان إلى الأمم المتحدة، ضاعت الدولتان الصغيرتان معًا. وإذا احتكمت دولة صغيرة وأخرى كبيرة، ضاعت الدولة الصغيرة. أمَّا إذا احتكمت دولتان كبيرتان إلى الأمم المتحدة، ضاعت الأمم المتحدة نفسها"!

ممثِّل على مسرح التاريخ

يقول روبير سوليه: "في لحظة هبوط طائرة السادات بمطار بن جوريون في إسرائيل يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٧٧، شعر الرجل الغارق في دلال تليفزيونات غربية لم تَعُدْ تفارقه، بأنه يعيش في أعالي السحاب، وقال بفخر لأحد أصدقائه المؤتَمنين على أسراره: لقد فاقت أعدادُ متابِعِي وصولي إلى القدس، عددَ مَن تابعوا نزول (رائد الفضاء) نيل أرمسترونج على سطح القمر. كان هذا صحيحًا بلا شَكٍّ، لكن المشكلة كانت في نزول السادات إلى الأرض. إن حياة الرجل لَهِيَ أشبهُ برواية، فالمراهِق المتحدِّر من عائلة فلاحين، والذي حلم في صباه بأن يصبح ممثِّلًا، انتهى به المطاف إلى أكبر مسارح العالم".

وفي مطلع عام ١٩٨٠ أجرت مجلة "تايم" الأمريكية استطلاعًا للرأي بين قُرَّائها عن أفضل شخصية غير أمريكية يتمنَّى القُرَّاء أن تحكم الولايات المتحدة. وبعد شهر من التصويت، بمشاركة أكثر من ١٨٠ ألف شخص، كانت النتيجة في شبه إجماع: نتمنَّى أن يحكم الساداتُ أمريكا مدى الحياة!

ويبدو أن هذه الأشياء التي يعتبرها الأمريكان من باب الطرائف السياسية ليس إلَّا، أدارت رأس السادات، فبعد أن كان يقول عبارته الشهيرة "إن ٩٩٪ من أوراق اللعبة في يد أمريكا"، أصبح هو نفسه لعبةً في يد أمريكا، ونجمًا في الإعلام العالمي. وبات الرجل مشهورًا في جميع أصقاع الأرض، إلى درجة أن المصريين الذين كانوا يسافرون بلادًا في أقاصي العالم مثل النرويج، يلحظون أن الناس هناك لا يعرفون سوى شيئين عن مصر: "الأهرامات والسادات".

وبلغ وَلَعُ السادات بنفسه ذُرْوَتَهُ في فبراير ١٩٨٠، حين نشرت صحف ومجلات منها "أخبار اليوم" و"آخر ساعة" و"المصور"، وغيرها، في الصفحات

الأُوَل للجرائد، وعلى صدر أغلفة المجلات- صورًا غريبة للرئيس المصريِّ على الطريقة الأمريكية: واقِفًا بالملابس الداخلية وهو يحلق ذقنه مبتسمًا لنفسه في مرآة الحمَّام، وعلى وجهه معجون الحلاقة، ثم وهو يمارس اليوجا، رياضة الحكماء الذهنية، أو يلعب رياضة خفيفةً رغم جسده النحيل الهضيم وعظامه البارزة، فبدا أشبه بمومياء فرعونية بَشِعَة.

لقد تحوَّل السادات إلى شخص آخر تمامًا، وحتى "أخلاق القرية" التي كان يدعو إليها في كل مناسبة لم تكن لتسمح له بأن يخرج على الناس هكذا. وبات الرجل أكثر مَيْلًا إلى العُزْلَةِ والتأمُّل الطويل في صومعته باستراحة "القناطر الخيرية"، ولم يَعُدْ يطيق سماعَ شيء سوى المديح، ويتبرَّم من أي شبهة نقد.

وعن العُقْدَة التي حكمت الرئيس الأسبق في أُخْرَيات عمره، قال سوليه: "إن السادات الذي كره البريطانيين في حداثته، بدأ يشبههم أكثر فأكثر عندما تقدَّم في السن والمكانة، إن البايب الذي لم يعد يفارق فمه أبدًا قد يوحي بغليون المصالحة والسلام الذي كان يدخِّنه الهنود الحمر، لكنه يبعث أيضًا صورةَ نوادي الأرستقراطيين الإنجليز القدامى. حتى لو أكَّد مُطْلِقو النُّكَت أن البايب كان مَحْشُوًّا على الدوام بمخدِّر الحشيش، فقد كان يعطي الانطباع بأنه يحتقر الزعماء العرب الآخرين المرتبطين بهذا الشرق الرجعي".

ولكن ما الذي جعل السادات، ابن البلد القديم، يتشبَّه بالأرستقراط الإنجليز في النهاية؟

يقول د. حسين مؤنس: "لقد تصوَّر السادات أنه بلغ ما لم يبلغه إنسان قبله، وما لن يبلغه إنسان بعده. وتصوَّر أنه هو وحده كسب حرب أكتوبر،

وهو وحده استعاد سيناء، وهو وحده الذي يعرف ماذا يُعْمَلُ وماذا لا يُعْمَل. وأخذ صورة سيِّدٍ أرستقراطيٍّ عظيم، له في كل رُكْنٍ من أركان مصر قَصْرٌ مَلَكِيٌّ يقيم فيه، وحاشية ضخمة تجري وراءه لتخدمه في قصوره، وأسرة ملوكية تصاهر أصحاب الملايين. هو في الشتاء في أسوان والإسماعيلية، وفي الصيف في الإسكندرية. والسيد العظيم يستيقظ في الحادية عشرة صباحًا ويبدأ العمل في الواحدة بعد الظهر، وطائرة بوينج ٧٠٧، وأخرى هليكوبتر، مربوطتان على بابه كما كانت الخيل تُرْبَطُ على أبواب السلاطين، وهو يصلِّي الجمعة في قفطان من صنع بيير كاردان، لقد تحوَّل سيِّدُ مصر، تَحوَّل إلى (ستار) عالمي، ومجلة شتيرن (الألمانية) تنشر صورته على غلافها وفي يده وردة، وتمنحه لقب أشيكَ رجل في الدنيا"!

وبعد أن وصل الرجل إلى هذه النهاية البائسة، مات السادات مرتديًا بدلةً عسكرية كانت مُصَمَّمَةً خصِّيصًا للفيلدمارشال النازي هيرمان جيرنج، مات غيلةً في ٦ أكتوبر ١٩٨١، بعدما اعتقل مئات المثقفين والصحفيين والسياسيين وأصحاب الرأي، وحبس أنفاسَ مصر معهم قبل شهر من اغتياله في "اعتقالات سبتمبر" الشهيرة.

اغتيل السادات بطلقة قَنَّاصٍ في الرقبة وهو جالس بين أركان حكمه على منصة الاحتفال بانتصار أكتوبر، بعد أن انتهى من تمثيل كل أدوار حياته، في نهاية مأساوية لم تكن لتخطر على بال أي مُخْرِج. نهاية، لو كان صاحبها قد حقَّق حلم شبابه وأصبح ممثِّلًا، لما استطاع أن يمثِّلَ أكثر منها عُنْفًا ودراماتيكيَّةً.

مبارك.. الكفن إِذْ "تطلع له جيوب"

"مصر ليست ضَيْعَةً لحاكِمِها".

مبارك: 1981.

"الفساد ظاهرة عالميَة".

مبارك: 2009.

بعد اغتيال السادات بنحو سنة، نشرت مجلة "أكتوبر" المطبوعة الأسبوعية الأولى وقتها، حوارًا جريئًا بمقاييس ذلك العصر مع الرئيس الجديد حسنى مبارك، سأله أنيس منصور خلال الحوار: سيادة الرئيس، يقول المحلِّلون السياسيُّون الأجانب الذين يزورون القاهرة إنهم لم يفهموا كيف حزنت مصر على جمال عبد الناصر الذي مات ميتة طبيعية، ولم يحزنوا على السادات الذي اغتيل يوم النصر، بل أطلقوا عليه هذا الفيضَ الهائل من النكت... فكيف تفسِّر سيادَتُك ذلك؟

ردَّ مبارك قائِلًا: "الحقيقة أن النكت لم تتوقَّف في أي وقت، إنما هي فقط تظهر وتختفي مرارًا، ولكنها دائِمًا موجودة. ونحن مصريُّون، ونعرف المزاجَ المصريَّ الذي يواجه المواقف الصعبة أو الأزمات العنيفة بالسخرية منها ومن نفسه أيضًا، ولعلنا نتذكَّر أن الرئيس جمال عبد الناصر في أول خطاب له بعد نكسة ٦٧ طلب من الشعب أن يَكُفَّ عن ترديد النُّكَت؛ لأنه بذلك يضرب قوَّاتِه المسلَّحةَ من الظهر".

وكان هذا الحوار مع أنيس منصور (أشهر صحفي وقتها) جزءًا من خطَّةٍ إعلامية، الهدفُ منها تعريف الرأي العام في مصر والعالم العربي بالرئيس الجديد، الذي خرج على الناس في بداية عهده رجلًا بسيطًا من أصول ريفية فقيرة، زاهِدًا في متاع الدنيا الفانية، مستقيمًا كضابط جَيْشٍ لم يعرف في حياته غير الضبط والربط.

في تلك الأيام الغابِرة، قال مبارك في أول خطبه العامة كلمته المشهورة: "الكفن مالوش جيوب... ومُدَّة رئاسية واحدة أو مدتين على الأكثر كفاية".

وفي حوار آخر مع مجلة "المصور" نُشر يوم ٣٠ أكتوبر ١٩٨١، قال الرجل نَصًّا: "إن مصر ليست ضَيْعَة لحاكمها"، ثم أكَّد في حوار ثالث لجريدة "مايو": "لن أرحم أحدًا يمدُّ يدَه إلى المال العام، حتى لو كان أقرب الأقرباء، إنني لا أحب المناصب، ولا أقبل الشِّلَلِيَّة، وأكره الظلم، ولا أقبل أن يُظْلَمَ أحد، وأكره استغلال علاقات النَّسَب". وهي التصريحات التي فعل عكسها تمامًا بعد ذلك، وكأنه كان "يتمسكن حتى يتمكَّن".

وبلغ من بساطة مبارك وقتها -والعُهْدَة على حسنين هيكل- أنه التقى ذات يوم مع فتحي رضوان في حوار قصير على طائرة الرئاسة القادمة من "برج العرب" إلى القاهرة، فأخبره ببساطة أنه -وهو الرئيس- ما زال يمسح حذاءه بنفسه كلَّ صباحٍ حتى الآن. وحكى له كيف يجلس على الأرض أمام "الجزَّامة" وراء مدخل الباب مباشرة، ثم يأتي بالفرشاة وعلبة الورنيش، وقطعة القماش لزوم التلميع، ويفعل ذلك تمامًا مثل أي مَسَّاح أحذيةٍ محترف!

"بلاش فضايح يا حسني"

في سنة ١٩٨٢، وبعد عدَّة شهور من تَوَلِّيه الحُكْمَ، أدار مبارك جلسة مع عددٍ من كبار الصحفيين في القصر الرئاسي، حضرها يوسف إدريس وأحمد بهاء الدين وموسى صبري ولطفي الخولي، وغيرهم. وكان من بين الحاضرين محمود السعدني، الذي سأل مبارك فجأة: إيه شعور سيادتك وانت قاعد على نفس الكرسي اللي قعد عليه رمسيس التاني ومحمد علي وجمال عبد الناصر؟

فقال مبارك: "لو كان الكرسي عاجبك ابقى خده معاك وانت ماشي"!

وحكى الدكتور فاروق الباز، عالم الجيولوجيا المشهور، قال: "كنت في رحلة إلى سيناء وشاهدت أشياء سيئة جدًّا تنفِّذها الحكومة هناك في تخطيط المشاريع الجديدة، وحاضرت في هذا الشأن بإحدى الجامعات المصرية عمَّا شهدته هناك، وكانت سوزان مبارك بين الحاضرين، فقالت لي (الرئيس لازم يسمع الكلام ده)، ووافقت. واشترطتُ أن أقابِلَ مبارك لمدة ساعة على الأقل حتى أتمكَّن من شرح ما أريد. وبالفعل أحضرت مُعِدَّاتي من (بروجيكتور) ولوحات وخلافه، ورحت أشرح للرئيس لمدة ساعة عن هذه الأخطاء التي ترتكبها الدولة، وكيف أنها تؤثِّر على الحياة الجيولوجية في سيناء، فلم يَزِدْ بعد كل ذلك كله على أن قال بهدوء غريب: (يا رب الأرض تنشق وتبلعك لو كنت فهمت منك حاجة)"!

وقديمًا قالوا "خير لك أن تصمت؛ فيظنَّ الناسُ أنَّك جاهِلٌ، على أن تتكلَّم؛ فتقطَعَ الشَّكَّ باليقين"، غير أن الرئيس الأسبق اشتهر بأنه لا يستطيع أن يداري جهله، ففي واقعة حقيقية حدثت بالفعل، وليست نُكْتَةً، كان

الرجل وزوجته في زيارة لإحدى قرى "أخميم" سوهاج، يتفقَّد -ضمن عددٍ من المنشآت الأخرى- المشاغِلَ اليدويَّةَ لصناعة السجاد في القرية، برفقة عددٍ من كبار رجال الدولة.

وتوقَّف مبارك وزوجته وحاشيته، ليدير حوارًا قصيرًا مع سيدة عجوز كانت تصنع السجَّاد، سألها: بتبيعوا السجادة من دي بكام يا ست؟

فردَّ محافظ الإقليم نيابةً عن السيدة: السجاد دا غالي يا افندم، بيتصدَّر لأوروبا وأمريكا بسعر يوصل لـ ١٠٠ ألف جنيه للواحدة.

سأل مبارك السيدة مجدَّدًا: والسجادة بتاخد منكم وقت قد إيه؟ ردَّت العجوز بهدوء: ٣ سنين.

وهنا صاح مبارك وكأنه جاب التايهة: طب وتاعبين نفسكم كده ليه؟ ما تجيبوا مَكَن بالكهربا وتعملوا ٢٠ سجادة كل يوم. في هذه اللحظة الحرجة، تنحنحت السيدة "سوزان" وهمست له في أذنه بمنتهى الخجل: السجاد دا كل قيمته إنه يدوي... بلاش فضايح يا حسني!

كذبة "بلاد الإكسلانسات"

أكد لي النائب البرلماني الراحل عبد الحليم لبنة أنه لا صحة على الإطلاق لما قاله الرئيس الأسبق للإعلامي عماد الدين أديب، أحد وكلاء كل العصور، في لقاء تليفزيوني شهير عن قصة تعيين مبارك نائِبًا لرئيس الجمهورية.

ذكر مبارك أثناء اللقاء أنه حينما استدعاه السادات عام ١٩٧٥ لم يكن يتوقَّع ذلك أبدًا، بل كانت أقصى توقُّعاته أو أمنياته أن يعيِّنه سفيرًا في إحدى دول أوروبا مثلًا، مؤكِّدًا أنه كان يتمنَّى العمل في العاصمة البريطانية لندن؛ لأنها "بلاد إكسلانسات".

أمَّا الحقيقة كما وردت على لسان السيدة ثريا لبنة، النائبة السابقة، صديقة السيدة "سوزان" المقرَّبة، أن مبارك كان يتوقَّع تعيينه رئيسَ حيِّ مصر الجديدة!

أمَّا صاحبة هذه "التحسينات" كما ظهرت على الشاشة فهي السيدة "سوزان"، التي أدركت بذكائها الحاد أن اعتراف زوجها على الملأ بموضوع "رئيس الحي" سيقلِّل من شأنه أمام الرأي العام، فالرجل محدود الذكاء والطموح، كانت أقصى أمانيه أن يصبح رئيسَ حَيٍّ، فإذا به يصبح رئيسَ مصر!

وفي أيامه الأولى، كان مبارك يتجوَّل في كل مكان وعلى وجهه "ابتسامة غُلب" ظاهرة لا تفارق وجهه في كل مناسبة. ونكايةً في هذه الابتسامة الدائمة أطلق الناس على الرجل اسم "البقرة الضاحكة"؛ نِسْبَةً إلى إعلان الجبنة الفرنسية المشهورة "لافاش كيرى" الذي كان يُذاع في قناتي التليفزيون الحكومي الوحيدتين، ولم يكن هناك غيرهما أصلًا، فاختفى الإعلان من التليفزيون نهائيًّا.

كما منع جهازُ "الرقابة" توزيعَ كتاب صدر بالإنجليزية في لندن لصحفي بريطاني، تطرَّق فيه الكاتب إلى موضوع "البقرة الضاحكة"، باعتبار أن المصريين يسخرون من رئيسهم "واسع الابتسامة" دائمًا، بينما البلد الخارجة من حادث اغتيال رئيسها، مُنْهَكَة بالمشاكل والأزمات.

لكن السؤال هو -كما تساءل هيكل-: كيف استطاعت "بقرة ضاحكة" أن تحكم مصر ٣٠ سنة؟

رأى هيكل أن المصريين قبلوا بمبارك رئيسًا لـ "ظروف" مُعَيَّنة"، وكأن مصر بذلك كان "عندها ظروف" في تلك الفترة، غير أن الظروف -في العادة- لا تطول إلى ثلاثين عامًا!

وبعد تشبيه "البقرة الضاحكة"، بدأ الناس منذ السنة الأولى لحكم مبارك بالتنكيت عليه، حين اكتشفوا أنهم أمام رجل أُمِّيٍّ سياسيًّا، لا يعرف في السياسة شَرْقَهُ من غَرْبِه، يتسقَّط النصيحة من أي شخص متعلِّم يلقاه، رئيس بدرجة "محتاس"، بعدما كان السادات يسمِّيه على سبيل السخرية أحيانًا "السيد النائب محمد (حُوستي) مبارك"!

وعن عقلية وطبيعة اهتمامات مبارك في تلك الفترة المبكِّرة، بعد تنصيبه نائبًا للرئيس سنة ١٩٧٥، روى الدبلوماسي جمال منصور الذي كان سفيرًا لمصر في العاصمة اليوغسلافية "بلجراد"، أن السادات كلَّف مبارك بنقل رسالة شخصية منه إلى الزعيم اليوغسلافي المشهور جوزيف بروس تيتو، الذي كان واحدًا من زعماء العالم المعدودين آنذاك.

وقضى نائب الرئيس والسفير مع "تيتو" حوالي ساعة من المباحثات الرسمية، ولاحظ منصور أن مبارك لم يرفع عينه طوال المقابلة عن الأرض، وكان ينظر

باستمرار إلى حذاء "تيتو" وكأن الجزمة هي موضوع المباحثات، فظنَّ السفير لأول وهلة أنه أمام شخصٍ قليل الخبرة، خجول، لم يتمرَّس بَعْدُ في المقابلات البروتوكولية مع زعماء العالم، فعذره.

وحين خَرَجَا من قاعة الاجتماعات، قال نائب الرئيس للسفير بلا خجل: عايزك تعرف لي من اصحابك اللي في وزارة الخارجية اليوغسلافية "تيتو" بيشتري الجِزَم بتاعته منين.

ومن اللحظة الأولى لحكمه، تبيَّن للناس أن مبارك رجلٌ بلا رؤية، ولا طموح سياسي، يعتبر نفسه مجرَّد "موظف" بدرجة رئيس، وهو الأمر الذي حاول أن ينفيه -فأكَّده- حين سُئِلَ: هل ستسير على خط عبد الناصر أم السادات؟ فأجاب بطريقة تمثيلية: اسمي محمد حسني مبارك!

ورغم ذلك دافع مبارك عن السادات بعنف، حتى إنه اتَّهم الكاتب الراحل يوسف إدريس في خطاب "عيد العمال" أول مايو ١٩٨٢ دون ذكر اسمه صراحة، بأنه قبض ٥ آلاف دولار من العقيد الليبي معمر القذافي لكي يكتب المقالات التي نشرتها جريدة "القَبَس" الكويتية مُسَلْسَلَةً، وصدرت فيما بعد في كتاب بعنوان "البحث عن السادات" عن دار نشر ليبية، وهي المقالات الشهيرة التي هاجم فيها إدريس السادات بضراوَةٍ، إلى حَدِّ اتهامه بالخيانة العظمى بعد توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل.

الرجل "منزوع الهِمَّة"

على ذِمَّة أكرم القصاص، فإن مبارك لم يكن في أول عهده مُثيرًا للتَّنكيت، على عكس سَلَفَيْه: عبد الناصر والسادات، من حيث إن الرجل بدا أول الأمر بلا خطايا، فلم تَرْمِهِ النُّكْتَةُ بحجَرٍ.

ولكن بعد فترة من حكم مبارك اعتبره المصريون رجلًا عديم الشخصية، لا يقدِّم ولا يؤخِّر، فقال سعيد صالح التعبير الشعبي التي سُجن بسببه ٦ شهور "أمي اتجوزت ٣ مرات، الأولاني وَكَّلْنا المش، والتاني علِّمنا الغش، والتالت لا بيهش ولا بينِشّ"، كإشارة ذكية ودالَّة على تَقَشُّف عبد الناصر، وغِشِّ السادات، وغُلْب مبارك.

وراحت النُّكَت التي تعاملت من قبل مع عبد الناصر على أنه قويٌّ وحاسم، و"إيده طرشه"، السادات على أنه خبيث ولئيم، تتعامل مع مبارك باعتباره رجلًا "منزوع الهمَّة"، قليل الذكاء إلى حَدِّ الغباء.

في تلك الفترة تقابل ثلاثة رجال: ياباني وأمريكي مصري، فقال الياباني: احنا أغبى واحد عندنا بيصنَّع روبوت "إنسان آلي" في البيت، وقال الأمريكي: احنا أغبى واحد فينا بيصنَّع "لابتوب" من منازلهم، فقال المصري: واحنا أغبى واحد فينا بقى رئيس جمهورية!

وكان مبارك مُهْتَمًّا بأحوال الناس ومشاكلهم اليومية، حتى عام ١٩٩٠. ففي تلك السنة كانت مصر على وشك إعلان إفلاسها وعجزها عن سداد ديونها الخارجية، غير أن الفعل الجنوني الذي أقدم عليه صدام حسين باحتلال الكويت في ذلك العام، أنقذ مصر من الإفلاس، بعد موافقة مبارك على مشاركة قوات مصرية في عملية "تحرير الكويت"، مقابل إسقاط الجزء الأكبر

من الديون، وجدولة سداد الجزء المتبقِّي.

وتردَّد وقتها أن أحد أمراء الخليج أعطى مبارك حفنة ملايين من الدولارات كمكافأةٍ شخصيَّةٍ له، وهو أمر لا يمكن القطع بِصِحَّتِه من عدمه. غير أن الرجل بات على كل حال بعد تلك السنة ١٩٩٠ شخصًا آخر تمامًا، مختلِفًا عمَّا قبلها.

وفي كتابه "مهووسون في السلطة"، يقول موريال ميراك- فايسباخ إن "مبارك كان يبدو في خُطَبِه العامَّة بعد عام ١٩٩٠ متنائِيًا بنفسه، وبعيدًا عن واقع المصريين. ونتج ذلك، في جزء منه، اعتماده كُلِّيًّا على القراءة من نَصٍّ مكتوب، وكان في خطَبِه الأخيرة يتلفَّظ بالكلمات دون أن يعطي أي انطباع عن اقتناعه بها، ناهيك عن أي انفعال. وإذا اضطُرَّ في مناسبة ما إلى الحديث ارتجالًا دون نَصٍّ مُعَدٍّ مُسْبَقًا، كان يتلفَّظ بِلُغَةٍ فَظَّةٍ، إن لم تكن سوقيَّة".

ويضيف "فايسباخ": "شهد مَن عَرِفَ مبارك عن قُرْبٍ أنه ليس بالشخص العميق، ووصفوه بأنه سطحي (...)، وقد قال لي أحد المثقَّفين المصريين، كان سبق والتقى مبارك في مناسبَتَيْن، إنه يبدأ الحديث عادة وسبَّابته مرفوعة ومُوَجَّهَة بشكل تهديديٍّ إلى مُحاوِرِه، كأنَّه يأمره بفعل هذا الشيء أو ذاك".

وحين بدأ ظهور نجله "علاء" في الأوساط المال والأعمال، راح مبارك يردِّد أمام الدائرة الصغيرة من المحيطين به عباراتٍ من قبيل أن "الفساد ظاهرة عالمية"، وهي الجملة التي ردَّدها في تصريحات على الملأ بعد ذلك بسنوات طويلة. وبدا الرجل أقلَّ اهتمامًا بالأحوال العامة، وأكثر تأفُّفًا من "المصريين" الذين صاروا يتعرَّضون -كشعبٍ بالكامل، وليس أفرادًا بعينهم- لسخريته المُرَّة، ثم كراهيته.

وذات يوم التقى مبارك في جلسة مغلقة بوفد من سيدات الأعمال الكويتيات كان في زيارة إلى القاهرة، لحضور مؤتمر اقتصادي ما. واشتكت بعضُ السيِّدات أثناء الجلسة للرئيس من أنَّهُنَّ يتعرَّضْنَ أحيانًا لسماع ألفاظِ "غَزَلٍ" خارِجَةٍ عن الحياء، ومعاكساتٍ بذيئة في الأماكن العامة، ولا يفعلن شيئًا خوفًا من الفضيحة، وخشية الدخول في سين وجيم إذا أبلغن الشرطة.

وبدل أن يعتذر لَهُنَّ مبارك بلطف، نيابةً عن شعبه، ما كان منه إلَّا أن سَبَّ آباء المصريين جميعًا بأقذع الألفاظ، ووصف أُمَّهاتهم بِأَحَطِّ الأوصاف، إلى درجة أن السيدات الكويتيات اللائي لم يتوقَّعْن أن يكون رَدُّ فعله بهذه المرارة، انزعجن بشدَّة ممَّا قاله، واعتذرن عن إثارة الموضوع، فقد قال الرئيس في حقِّ شعبه ألفاظًا أقذع ممَّا قد يَسْمَعْنَ في الشارع!

وبعد عدة أيام تسرَّبَت وقائع الشتائم المخزية إلى بعض الصحفيين، فلم يفكر أحدهم في الكتابة عنها بطبيعة الحال، باستثناء الكاتب الراحل جمال بدوي، الذي كان وقتها رئيس تحرير جريدة "الوفد" واسعة الانتشار. كتب الرجل مقالًا شجاعًا لمَّح فيه -مجرد تلميح- إلى أن ما حدث من "المسؤول الكبير" في هذه الجلسة المغلَقَة أمرٌ لا يَصِحُّ، وأنه إهانة بالغة للمصريين.

ولم تمر سوى أيام قليلة، حتى قطع ٥ بلطجية يقودون سيارة "جيب شيروكي" ممَّا يُستخدم في الحراسات الخاصة، الطريقَ على "بدوي" وهو عائد إلى منزله ليلًا، وأنزلوه من سيارته ثم أوسعوه ضربًا ورَكْلًا، حتى سقط مَغْشِيًّا عليه في عرض الشارع، وعثر عليه بعض المارة فطلبوا له الإسعاف ونقلوه إلى المستشفى. وخمَّن الجميعُ أن رجال علاء مبارك هم الجاني الحقيقي وراء هذه الجريمة، والله أعلم.

وقيل بعد ذلك إن مبارك بنفسه اعتذر لـ "بدوي" عمَّا حدث، في اتصال تليفوني جرى بينهما أثناء وجود الأخير في المستشفى، مُؤَكِّدًا أن هذا ليس أسلوبه أبدًا.

وظهر الفساد في كل مستويات الحكم على استحياء، ثم راح يكشف عن نفسه بكلِّ بَجاحَةٍ، بعد أن أصبحت مصر شيئًا فشيئًا على عكس ما قاله مبارك في أيامه الأولى: عِزْبَةً لحاكِمها، وأبناء حاكِمها.

كان مبارك يفتتح مصانِعَ جديدةً في منطقة "برج العرب"، وبعد جولة بالمدينة، دخل أحد المصانع وسأل عاطف صدقي رئيس وزرائه: المصنع ده بتاع مين يا عاطف؟ قال عاطف هامِسًا له في أذنه: هقول لسيادتك بعدين يا أفندم. دخلوا المصنع اللي بعده، والتالت، والرابع، فحدث نفس الشيء.

وفجأة شخط مبارك في رئيس وزرائه: أنا كل ما اسألك المصنع ده بتاع مين يا عاطف تقول لي هقولَّك بعدين، قال عاطف: المصانع دي كلها بتاعة "الأستاذ علاء" يا أفندم، قال مبارك: هو معقول عمل كل ده من مصروفه؟!

وكادت هذه النُّكْتَة تتسبَّب في أزمة سياسية بين مصر والسعودية؛ فقد نقلتها الصحفية سوسن أبو حسين -التي كانت تعمل في مكتب جريدة "الشرق الأوسط" بالقاهرة- بين سطور تقرير إخباري نشرته الصحيفة، باعتبار أنها طُرْفَة متداوَّلة في الشارع المصري، تتحدَّث عن استثمارات نَجْلِ أحد "المسؤولين الكبار" في البلد، ولم تذكر الصحفية اسم مبارك أو نجله طبعًا.

ومع أن النكتة كانت مخفيَّةً جيِّدًا بين السطور، انقلبت الدنيا، وصُودِرَت طبعة القاهرة من الجريدة، وتَمَّ حَظْرُ توزيعها في مصر، ولم يكتفِ مبارك وأجهزته بذلك، بل طلبوا من جهات ملكية سعودية معاقبة الصحيفة، التي

كان يملكها الأمير سلمان بن عبد العزيز، العاهل السعودي الحالي. واختفت سوسن أبو حسين في مكان مجهول فترة، حتى تمَّ تسوية الأزمة بعد بضعة أشهر من منع توزيع الجريدة، بِتَدَخُّل من أحد الأمراء.

وحشر علاء مبارك أنفه في كل شيء، حتى إن سائِحًا ركب مع سائق تاكسي من المطار، ووجد ٣ صور صغيرة على "التابلون"، فسأله: مين دول؟ ردَّ السائق: الأولاني ده الزعيم جمال عبد الناصر قائد ثورة ٢٣ يوليو.

قال السائح: والتاني؟

- ده الرئيس أنور السادات بطل الحرب والسلام.

- والتالت؟

- ده حسني مبارك أبو "علاء" شريكي في التاكسي!

وعثر رجل كان يسير في منطقة صحراء المماليك شرقَ القاهرة على "مصباح علاء الدين"، فلمَّا دعكه خرج له عفريتان لا عفريت واحد، فسأل الأول: انت مين؟ قال: أنا الجني علاء الدين خادم المصباح.

وسأل الثاني: أومَّال انت تبقى مين؟ قال: أنا علاء مبارك شريكه في المصباح!

ولكن "علاء" لم يَرْضَ فيما يبدو بِدَوْرِ الشريك بعد ذلك؛ فقد عثر شاب على المصباح السحري، فلمَّا دعكه خرج الجنِّيُّ وخطف موبايل الشاب المسكين وعاد بسرعة إلى المصباح، ثم خرج مرة ثانية وخطف منه المحفظة وفَرَّ هارِبًا إلى الداخل. وعندما خرج ثالث مرة سأله الشاب مندهشًا: مش ده مصباح علاء الدين؟ قال الجني: لأ ده مصباح علاء مبارك!

وظهر "علاء" في البرنامج الشهير "مَن سيربح المليون"، ووصل إلى آخر سؤال ضمن حلقة الموسم المذاعة على الهواء مباشرة، فسأله المذيع جورج

قرداحي السؤال الأخير: مَن هو أغبى رئيس في تاريخ مصر الحديث؟ معك ٤ اختيارات وفيك تربح مليون ريال: هل هو "أبو علاء"، أم "أبو جمال"، أم حسني مبارك، أم الرئيس الحالي؟

احتار "علاء" رغم سهولة السؤال، واختار الاتصال بصديق لطلب المساعدة، فطلب شقيقه "جمال" الذي صرخ فيه على التليفون: انسحب فورًا يا غبي... اخسر المليون وما تخسرش أبوك!

"أغبى واحد فينا رئيس"

أمَّا عن "نكت الغباء"، فحَدِّثْ ولا حرج. مع ملاحظة أن الحديث عن هذا النوع من النُّكَت لا يعني التشكيك في قدرات الرئيس الأسبق العقليَّة، وهو ما نترفَّع عنه، خصوصًا وأن الرجل قد فقد سلطته "على حياة عينه" كما يقولون، بل سنورد النُّكَت كما تمَّ تداوُلها في الشارع المصري ذات يوم، ليس إلَّا.

كان أحمد نظيف، رئيس الوزراء الأسبق، يتجوَّل ليلًا في القاهرة، وعند "ميدان لاظوغلي" قرب وزارة الداخلية فوجئ بالتمثال القائم في الميدان ينادي عليه: أنا تعبت م الوقفة، وعايز حصان أركبه زي "إبراهيم باشا".

اندهش نظيف ممَّا رأى، وتوجَّه على الفور إلى مبارك وحكى له ما حدث، فلم يصدِّقْه، فقال له: لو مش مصدَّقني يا ريِّس يلَّلا بينا على هناك دلوقت. ولمَّا وصل الاثنان إلى الميدان، ووقفا أمام التمثال، قال "لاظوغلي" غاضِبًا: أنا قلت لك عايز حصان!

وفي واقعة أخرى، مشهورة، طلب "الديك والكلب والحمار" الهجرةَ من مصر، ووصل الأمر إلى سمع مبارك فاستدعاهم جميعًا ليعرف أسبابهم، سأل الديك أوَّلًا: عايز تهاجر ليه؟ فقال: أنا كل يوم الصبح أقعد أأدِّن والناس مبتصحاش تصلِّي ولا تروح الشغل، عشان مفيش شغل. فكتب الرئيس "يُصرَّح له بالهجرة"، ثم سأل الكلب فقال: بصراحة كده البلد اتْمَلِت حراميَّة، ومش عارف أجري ورا مين ولَّا مين، كتب مبارك "يُصرَّح له بالهجرة"، وجاء دور الحمار فسأله: وانت بقى كمان عايز تهاجر ليه؟ قال: عشان مينفعش يبقى في اتنين حمير ف بلد واحدة!

ويرى منتصر جابر أن "هذه النكتة بالذات مريرة، وكاشفة -في نفس الوقت- عن حالة المجتمع المصري في ظِلِّ حُكْمِ مبارك، وأنها أقرب إلى الكوميديا السوداء؛ فهي لا تعكس سوء الأوضاع الاقتصادية وتفشي الفساد في كل مكان فقط، بل تعكس أيضًا الحالة الأخلاقيَّة والعقليَّة العامة، حالة البلادة والغباء التي انتابت المجتمع كله منذ وصول مبارك إلى الحكم".

وليس أَدَلَّ على "الحالة العقلية" لمبارك من كون سمير رجب هو كاتب السلطة الأول في عهده، فمن المعلوم أن رجب بدأ حياته الصحفية "تاجر شنطة" يتعامل في اللانجيري الحريمي عندما كان مندوبًا لجريدة "الجمهورية" في مطار القاهرة، بِحُكْمِ وجوده في السوق الحرة بالمطار، ولم يكن في تاريخه الصحفي -باستثناء ذلك- أي إنجاز يُذْكَر.

ووصل الأمر إلى حَدِّ أن نصح مبارك كبارَ الصحفيين والكُتَّاب في أثناء إحدى لقاءاته معهم، بأن "يقتدوا" بسمير رجب فيما يكتبون للناس، وكان الوحيد الذي أعلن عن غضبه من ذلك هو يوسف إدريس؛ فقد ترك إدريس الاجتماع غاضبًا بلا استئذان وهو يردِّد "هيَّ حصَّلِت كده؟!".

لماذا كان مبارك مُعْجَبًا بالأخ رجب إلى هذه الدرجة، حتى إنه اعتبره "الكاتب الأول" في عصره، ونصَّبَه رئيسًا لتحرير جريدتين في وقت واحد، هما: "الجمهورية والمساء"؛ لأن رجب -كما قالت النُّكْتَة السائِرَة- كان "بيكتب الصبح وبالليل"!

رجال دولة مبارك

من بين رجال دولة مبارك، وأتباع نجلَيْه: "علاء وجمال" وشركائهما، لمعت أسماء كثيرة مُلَطَّخَة، مثل أحمد عز وكمال الشاذلي وصفوت الشريف وفتحي سرور وأنس الفقي وزكريا عزمي، وغيرهم.

وكان للرجل الثالث في نظام مبارك، بعد الرئيس وابنه الضال "جمال"، قصَّة أغرب من الخيال سنمرُّ عليها سِراعًا، كمثالٍ دالٍّ على مدى وضاعة وخِسَّة الشخصيات التي شاركت في حُكْمِ مصر ذات يوم.

بدأ الرجل الثالث حياته "عازف درامز" أيَّام الدراسة الثانوية، وعَمِلَ ضمن فرقة موسيقى جماعية كانت تعزف وراء إحدى أشهر راقصات العصر في "كازينو الليل" بشارع الهرم. وكان الشاب "يلقَّط" رزقه من تحريك اللحم الأبيض، ثم ترقَّى فأصبح يعزف منفردًا خلف الراقصة، التي كانت على علاقة وثيقة مع سفير رومانيا لدى القاهرة في تلك الفترة.

ووفَّرَت الراقصة -بمساعدة السفير- للعازف فرصةَ عمل في أحد فنادق العاصمة الرومانية بوخارست، حيث أقام هناك أكثر من ١٠ سنوات يعزف ويدرس الهندسة، وتعرَّف خلال ذلك على ابن الرئيس الروماني الأسبق نيقولاي شاوشيسكو، الذي كان زبونًا في الملهي الليلي، محلِّ عَمَلِ صاحبنا.

كان الابن يتلقَّى من ميزانية الدولة ومن الحزب الشيوعي الحاكم وقتها أموالًا طائلة بصفته قائد "الحرس الوطني" الذي يتولَّى حماية الجبهة الداخلية. إلا أن الابن اختلس لنفسه مئات الملايين من هذه الأموال، وأنشأ شركة استيراد وتصدير سجَّلها على الورق باسم صديقه العازف المصري؛ خشيةَ انكشاف أمره في مجتمع اشتراكي من المفترض أنه -نظريًّا على الأقل- لا يرحم الفاسدين.

ولم يَفُتْ نجل "شاوشيسكو" أن يتَّخذ جميع الإجراءات اللازمة ضد صديقه الذي قام بدور "الكَحُول" بالتعبير الشعبي، وهو شخص يستعين به المحامون ليكون مالِكًا صوريًّا لأي منقولات أو عقارات، أو حتى "يشيل قضية" بدل الجاني الحقيقي مقابل المال، أي أن "شاوشيسكو الابن" أخذ على الكحول المصري أوراقًا رسمية لكي يبقى تحت سيطرته التامة، وبما يَحُولُ دون استيلائه على أموال الشركة التي عملت سنوات طويلة في تصدير الحديد من رومانيا إلى مصر، وأصبح رأسمالها بمئات الملايين من الدولارات، حتى ضرب القدرُ ضربَتَه في هذا الفيلم الذي لم يُخْرِجْه حسن الإمام!

في ديسمبر عام ١٩٨٩، اندلعت ثورة شعبية دمويَّةٌ ضدَّ "شاوشيسكو الأب"، كانت بداية نهاية الشيوعية في دول شرق أوروبا، وأطاحت الثورة بالرئيس الذي حكم البلاد ٢٣ سنة خلال ساعات، ثم جرى بين عشيَّةٍ وضُحاها إعدامه رميًا بالرصاص هو وجميع أفراد أسرته، بمن فيهم الابن المختلس، وأصبحت أموال الشركة من نصيب صاحبنا الذي لم يفكِّر لحظةً واحدة في إعادتها إلى أصحابها الحقيقيين من فقراء رومانيا، بل اعتبرها مالًا بلا صاحب، وعاد إلى مصر، فبنى إمبراطوريته الخاصَّة في مجال تصنيع الحديد، وعاد سيرته الأولى، فأصبح عازِفًا في جوقة مبارك وولده "جمال"، وصار "الكَحول السابق" أحدَ سادَة مصر!

ومن بين كل رجال نظام مبارك، كان هناك رجل مثقَّف واحد هو الدكتور مصطفى الفقي، سكرتير الرئيس للمعلومات بين عامَيْ ١٩٨٥-١٩٩٢، الرجل الظريف الذي امتلك شجاعة الاعتراف صراحة بأنه كان "عبده مشتاق" لأي منصب وزاري. وكان الفقي ممَّن يتولَّون حَكْيَ النُّكَت

المتداوَلة للرئيس الأسبق، وخصوصًا البذيئة منها.

شَغِلَ الفقي، وهو من المفكِّرين القوميِّين المعدودين، منصبَه لمدة ٧ سنوات لم ينطق خلالها بكلمة حقٍّ واحدة أمام مبارك، بل قيل -فوق ذاك- إنه كان يقوم بدور "العصفورة" التي تنقل للرئيس القيل والقال في الوسط السياسي؛ لذلك حاز لقب "فقي لكل العصور".

كان الرجل يعمل خلال تلك الفترة في خدمة نظام مبارك نهارًا، ويسهر كل ليلة مع مجموعة النائب العام الأسبق عبد المجيد محمود، التي كانت تضمُّ كُلًّا من المستشار رجاء العربي وجورج حكيم، رجل الأعمال الذي ارتكب عملية نصب كبرى وهرب إلى أمريكا، حتى وقعت أحداث قضية لوسي أرتين، الحسناء الأرمينية الشهيرة، وهي الفضيحة التي فجَّرها الكاتب عادل حمودة بإيعاز من أجهزة الأمن في مجلة "روز اليوسف"، من أجل تلطيخ سمعة المشير عبد الحليم أبو غزالة، بعد أن صعد نجمه بقوة في الشارع المصري، وغضبت عليه أمريكا إثر تَوَرُّطِه بدوافع وطنية في قضية تهريب قطع الصواريخ من الولايات المتحدة إلى مصر، وهي القضية المعروفة باسم "عملية الكربون" والتي تفجَّرَت عام ١٩٨٨، فاستغلَّ مبارك هذه القضية ليقيل "أبو غزالة" من منصبه كوزير دفاع.

وفي حين برَّأ القضاءُ "أبو غزالة" من هذه الفضيحة عام ١٩٩٥، سجَّلَت أجهزة الأمن في دولة مبارك مكالماتٍ غراميَّةً ليليَّةً بين الفقي وأرتين. وكان المفكِّر الكبير، ٦٣ سنة آنذاك، يغازِلُ المرأة الفاتنة خلال المكالمات مغازَلاتِ مُراهِقٍ غِرِّير لم يعرف امرأةً في حياته، ويزيدها من حِسِّه الفكاهي السقيم فيسخر من وليِّ نعمته "مبارك" قائِلًا لمحدِّثَته: إوعى يُغرِّك جسمه، ده طول

النهار قالب دماغنا بالكلام عن فوايد الاسكواش، والنتيجة عضلات ع الفاضي ومفيش مخ!

وفي كتابه "سنوات الفرص الضائعة"، حكى الفقي عن الدور السياسي المحدود الذي لعبه مبارك بعد تولِّيه منصب نائب الرئيس، قائلًا: "أصبحنا نسمع اسم محمد حسنى مبارك، رجلًا لم يتجاوز سِنَّ الشباب في مطلع الأربعينيات، يحضر مع الرئيس السادات في كل المقابلات الرسمية، ومعه نوتة صغيرة، فسمَّاه الناس وقتها "السيد محمد حسنى مبارك حضر المقابلة"؛ لأنه في كل مقابلة كان يُقال في وسائل الإعلام: وحضر المقابلة السيد محمد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية"!

ومثلما تخلَّص "مبارك" من "أبو غزالة" بعد صعود نجمه، حدث الشيء نفسه -وللسبب ذاته- مع عمرو موسى، الرجل الظاهرة في الدبلوماسية المصرية، وزير الخارجية آنذاك، أمين عام جامعة الدول العربية فيما بعد؛ فقد أصبح موسى الذي بدا أنه يجيد الكلام أكثر من مبارك، نجمًا شعبيًّا ساطِعًا بسبب مواقفه الكلامية المتشدِّدة في ملف الصراع العربي- الإسرائيلي، خصوصًا بعد أن أطلق المطرب الشعبي شعبان عبد الرحيم أغنيته المشهورة "باحب عمرو موسى وباكره إسرائيل" عام ٢٠٠٠، فانفتحت على الوزير الأسبق أبواب جهنم، بعد أن انفجرت الأغنية كالقنبلة في الشارع المصري والعربي، وكتبت عنها وسائل إعلام عالمية.

ولأن "شعبولًا" كان مطرب مصر الأول وقتها؛ فتحت صحيفة "أخبار اليوم" النارَ على موسى وهو في السلطة، لأول مرة في تاريخ الإعلام الحكومي، بعد أن بدأ الرجل يسحب البساط من تحت أقدام مبارك نفسه، واستكتبت

الجريدة كُتَّابًا مُعارِضين كان من المستحيل أن يكتبوا فيها من قبل، مثل الأكاديمي الغامض د. رفعت سيد أحمد، وغيره، ممَّن وصفوا الوزيرَ الأسبق بأنه مجرد كلمنجي "يفش خلقه" في التصريحات النارية، وأنه "ظاهرة صوتية"، وهو التعبير الذي صكَّه المفكِّر السعودي الراحل عبد الله القصيمي، واصِفًا به جنس العرب عمومًا.

أمَّا "شعبولا"، عاشق عمرو موسى السابق، فقد أصدر أغنية جديدة بعنوان "باحب الحمار جد مش هزار"، واضعًا الوزير والحمار في سَلَّةٍ واحدة!

ومن مُضْحِكاتِ السياسة المصرية، لكنه ضحك كالبكاء، اعترافُ المرشَّح الرئاسي الأسبق في مذكِّراته الصادرة بعنوان "كتابِيَه"، أن الأغنية الأولى "باحب عمرو موسى" كانت النقطة الأخيرة في كوب رئاسته للدبلوماسية المصرية، وأنه أدرك بنفسه فور صدور هذه الأغنية أن أيامه كوزير باتت معدودة، وهو مؤشِّرٌ على مدى تدنِّي العقلية الحاكمة آنذاك، غير أنه لم يتطرَّقْ نهائيًّا إلى الأغنية الثانية!

في تلك الفترة المظلمة من تاريخ مصر، يقول د. عزمي بشارة: "دَأَبَت الرئاسة المصرية على الإيعاز لأصوات معارضة بانتقاد قطاع ما في النظام نفسه، مُفْسِحَةً لها هامِشَ النقد، لا لأسباب ديمقراطية؛ بل لرغبة الرئاسة في التخلُّص من عناصرَ نافِذَةٍ داخل النظام، أو لأنها تريد بشكل غير مباشر التعبير عن عدم رضاها عن هؤلاء النافذين؛ فتتركهم عُرْضَةً للنقد الإعلامي".

كوميديا "الوريث" الذي لم يَرِثْ

سَعَتْ السيدة "سوزان" سعيًا حثيثًا لإيصال ابنها "جمال" إلى كرسي الحكم في حياة والده، بمساعدة أنس الفقي وأحمد عز وحبيب العادلي وآخرين، خصوصًا بعد أن تمَّ تنصيبُ بشار الأسد رئيسًا لسوريا، خَلَفًا لأبيه حافظ الأسد، وشاهد العالم بأَسْرِه أغرب "نكوص حضاري" يمكن تصوُّره، وهو عودة بعض الجمهوريات العربية في مطلع القرن الحادي والعشرين إلى الحُكْمِ الملكي العضود، وكأن عجلة التاريخ ترجع إلى الخلف.

في تلك الظروف الغريبة، ظهرت نُكَتُ "التوريث" التي أعطاها مبارك نفسه دفعةً قويَّةً عندما سُئِلَ عن دور "جمال" في الحياة السياسية فقال ببساطة: "ابني بيساعدني".

وجاءت هذه الإجابة الغامضة لتؤكِّد أن الأمور خَلَتْ من كل منطق، وباتت أقرب إلى العبث، رغم أن الرئيس الأسبق قال في مناسبة أخرى ردًّا على شائعات التوريث إن "مصر مش سوريا".

استدعى مبارك سيد طنطاوي شيخ الأزهر والبابا شنودة على عَجَلٍ، وفور وصولهما إلى مقرِّ الرئاسة قال لهما: أنا جمعتكم النهارده عشان أقول لكم إني نويت أتنازل عن الحكم رسميًّا لابني "جمال" سنة ٢٠١١.

نظر الشيخ والبابا إلى بعضهما، وآثر "طنطاوي" الصمتَ؛ علامةَ الموافقة، غير أن "شنودة" انتفض من كرسيِّه قائِلًا: لا إله إلَّا الله محمد رسول الله. وفوجئ الشيخ مبهوتًا بذلك، فسأله: إيه اللي بتقوله ده يا نيافة البابا؟ قال "شنودة": ما هي حاجة تخلِّي الواحد يطلع من دينه!

واستدعى مبارك البابا شنودة لوحده هذه المرة، وقال له: احنا دلوقت في

أزهى عصور الوحدة الوطنية، وعايزين نأكِّد للعالم كله بالدليل إن مفيش فرق بين المسلم والمسيحي ف مصر.

رد "شنودة" الذي اشتُهر بدهائه: أوي أوي... أنا مع سيادتك طبعًا يا ريِّس... بس إزاي يعني؟

قال مبارك: إنك تتنازل لـ "جمال" عن البابويَّة.

اندهش "شنودة" قائلًا: "بس جمال مسلم يا أفندم"، رد مبارك: احنا مش لسه قايلين حالًا إن مفيش فرق بين مسيحي ومسلم!

وسخر الناس من مسألة توريث الحكم في عبارة شهيرة تردَّدت آنذاك، تقول: "الرئيس هيثم جمال مبارك يهنِّئ الشعبَ المصري والأمة العربية بمناسبة حلول عام ٢٠٧٥، ويؤكِّد لكم أن السلطة في مصر لم ولن تُوَرَّث بعد اليوم".

ويقول القصَّاص: "إذا كان السادات هو (الرئيس المؤمن) حسب اللقب الذي منحه لنفسه، فإن مبارك بحكم كَوْنِه صاحب أطول فترة حكم في تاريخ مصر بعد رمسيس الثاني ومحمد على، حصل على لقب (الرئيس المُزْمِن)، حتى إنه قال آخر خطبة له عام ٢٠١٠ إنه (سيواصل البقاء في السلطة حتى آخر نبضة في قلبه)".

قدَّم أحمد نظيف للرئيس في عيد ميلاده صندوقًا مغلقًا، وعندما فتحه وجد بداخله سلحفاة صغيرة، فأبدى تأفُّفَه من الهدية قائلًا: إيه القرف ده؟. قال نظيف: يا ريس دي مُعَمِّرة وبتعيش أكتر من ٣٠٠ سنة. تنهَّد مبارك، ثم قال: ماشي، عمومًا أدينا هنشوف!

عثر الشاب على الفانوس السحري، فخرج له الجني قائلًا: شُبِّيك لُبِّيك، تطلب إيه؟ قال الشاب: أنا عايزك تعمل كوبري بين القاهرة وأسوان، العفريت قال

له: دي صعبة أوي، ممكن تشوف حاجة تانية، قال: خلاص، خلِّي حسني مبارك يسيب الحكم. رد العفريت: عايز الكوبري حارة واحدة ولَّا اتنين؟

ولقي مبارك نفسه -هذه المرَّةَ- المصباحَ السحري، ولمَّا خرج له العفريت قال له: عايزك تِرَجَّع لي أبويا اللي مات من ٣٠ سنة، قال الجني: لأ صعب جدًّا، فقال مبارك: "طيب عاوزك ترجَّعني رئيس محبوب زي زمان، رد العفريت بسرعة: "لأ أرجع أبوك أسهل"!

وراح مبارك بحكم طول عهده بالسلطة، ينحدر من سيِّءٍ إلى أسوأ على المستويات كافة، فقد حدث موقف غريب أثناء لقاء مفتوح عقده الرئيس مع المثقفين في معرض الكتاب ذات عام، حيث طلب الكاتب الراحل فرج فودة الكلام، قائلًا بمنتهى التهذيب: "ياريت يا ريِّس نلاقي طريقة لزيادة مُرَتَّبات أفراد الشرطة".

وهنا ظهر الامتعاض على وجه مبارك، فأضاف فودة مستدركًا: "أقصد يا ريِّس الأفراد وصف الضُّبَّاط والصُّولات؛ لأنهم يعولون أُسَرًا وأجورهم البسيطة لا تكفيهم"، وكان رد الرئيس فريدًا من نوعه، حيث قال له بغضب ظاهر: "متقلقش، هُمَّه يا اخويا بيعرفوا يتصرَّفوا.. وعايشين كويس أوي"!

جامِعُو النُّكَت

كان جهاز "أمن الدولة" أكثرَ الأجهزة الأمنية في عهد مبارك قوَّةً ونفوذًا، أو "جهاز أمن الدعوة" كما سمَّاه الناس، يجمع النُّكَت بمعاونة الأجهزة السيادية التي عادةً ما تتولَّى هذه المَهَمَّة. وفي عدد خاص عن "التنكيت في مصر" صدر في مارس ١٩٩٨، قال اللواء حسن أبو باشا، وزير الداخلية الأسبق، إن "أمن الدولة" قام بمهمة جمع وتحليل النكات الرائجة في الشارع خلال عهد مبارك، وكان يقدِّم تقريرًا أسبوعيًّا بها إلى مجلس الوزراء. وأحيانًا ما كان رئيس الجهاز يعرض هذا التقرير بنفسه على المجلس في اجتماع مُغْلَقٍ يضمُّ الوزراء المعنيين، أو يقدِّمه مكتوبًا وعليه شعار "سرِّي جدًّا" إلى رئيس المجلس، ليتولَّى هذا بدوره تصعيد التقرير إلى مؤسَّسة الرئاسة.

ومن المعلوم أن أسامة الباز وعمرو موسى كانا يجمعان -كلٌّ على حِدَة- النُّكَتَ المنتشرة في تلك الفترة، ويقولانها للرئيس إذا سنحت المناسبة. والطريف أن مبارك -حسب ما حكى أنيس منصور- كان يضحك بشدَّة من النُّكَت التي تسخر من كبار المسؤولين في عهده، وخصوصًا من المقرَّبين لديه، كأنه "ينتقم منهم بالضحك عليهم"!

ونقلًا عن منتصر جابر، بتصرُّف، فلم يكن مبارك "ظريفًا بالمرة"، ورغم ذلك كان يحب سماع النكت، لكنه يفضل النِّكات المباشرة الخالية من التورية والذكاء، على عكس سلفه السادات مثلًا، ولذلك كانت مؤسَّسة الرئاسة في عهد مبارك تستدعي ممثلين كوميديين درجة تانية مثل المنتصر بالله وطلعت زكريا لإضحاك الرئيس الأسبق وإبلاغه بآخر نكتة، وكان الأخير "زكريا" هو المفضَّل لديه في السَّفَرِيَّات الداخلية والخارجية، خصوصًا بعد ظهور فيلمه "طبَّاخ الرئيس".

وانتشرت في عصر مبارك نُكَتٌ من نوع آخر، عن سلبيات ذلك العصر، ومنها: البطالة والفساد وخلافه: لقي شابٌّ "مصباح علاء الدين" ودعكه، فطلع له العفريت وقال له: شُبِّيك لُبِّيك تطلب إيه. قال الشاب: تطلع أمريكا من العراق. الجني: بس أنا مليش دعوه بالسياسة، قال الشاب: طيب أنا خريج ١٩٩٩ وعايز أشتغل، الجني قال له: أطلَّع أمريكا أحسن!

ودخل مواطن أحد المجمعات الاستهلاكية التي أُهْمِلَتْ عَمْدًا في عصر مبارك، وطلب "فرخة" فسأله الموظف: عايزها صاحية ولَّا مدبوحة؟ قال: مدبوحة.

ردَّ الموظف: اطلع الدور التاني.

طلع المواطن، وقال للموظف هناك: عايز فرخة مدبوحة، فسأله: عايزها سليمة ولا مقطَّعة؟ قال: مقطَّعة، فقال له: اطلع الدور التالت.

وهناك صاحبنا قال للموظف: عايز فرخة مدبوحة ومقطعة، سأله: عايزها ف كيس ولا من غير كيس؟ رد: ف كيس، فقال له: اطلع الدور الرابع.

واستقبله الموظف مبتسمًا في آخر دور، فقال له المواطن: عايز فرخة مدبوحة مقطَّعة مكيِّسة، ردَّ الموظف بابتسامة: الحقيقة مفيش فراخ، بس إيه رأيك ف النظام؟!

وفي منتصف عهد الرئيس الأسبق اختفت نُكَتُ الغباء نهائيًّا، وظهرت بدلًا من ذلك نكات أخرى تُصَوِّرُه باعتباره حاكِمًا فاسِدًا، لا ذِمَّة له ولا ضمير ولا دين أحيانًا، ومنها نكتة شهيرة تقول إن البابا شنودة سأل مبارك ذات مرة: هل يجوز دستوريًّا أن يتولَّى مسيحي رئاسة الوزراء يا سيادة الرئيس؟ رد مبارك: يجوز طبعًا... وإيه المانع؟

سأل "شنودة" مُجَدَّدًا: وهل يجوز دستوريًّا أن يتولَّى رئاسةَ الجمهورية

مسيحيٌّ؟ قال مبارك: "ولا مسلم وحياتك"!

ويُحكى في هذا الصَّدَد أن مبارك كان يرأس اجتماعًا لمجلس الوزراء ذات يوم، ولاحظ أن أحد وزرائه كان ينظر في الساعة كل فترة بقلق، فسأله: عندك معاد؟ قال الوزير: لا يا ريِّس أن لسَّه شاري عربية جديدة لمراتي، وملقيتش ركنة، فاضطرِّيت أركنها ف الشارع وخايف تتسرق. قال له مبارك: متخافش، كل الحرامية قاعدين معانا هنا!

كان الفساد في عصر مبارك هو القاعدة، والنزاهة استثناء، من رئيس السلطة التنفيذية إلى أصغر مسؤول في دولاب الدولة، إلَّا مَن رَحِمَ ربي، خصوصًا بعد أن قال الرئيس الأسبق في تصريح رسميٍّ على الملأ إن "الفساد ظاهرة عالمية"، بعد أن كان يُسِرُّ بذلك لحاشيته والمقرَّبين منه فقط.

سأل موظف مصري كان في مهمة عمل بالولايات المتحدة موظَّفًا أمريكيًّا: مُرَتَّبَك كام؟ قال: ١٠ آلاف دولار، باصرف منهم ٦ كل شهر، فسأله المصري: والباقي بتودِّيه فين؟ ردَّ الأمريكي: أنا حُرّ.

وسأله الأمريكي بدوره: مُرَتَّبَك كام، قال المصري: مُرَتَّبي ١٨٠٠ جنيه وباصرف ٥ آلاف شهريًّا، فتعجَّب الأمريكي من ذلك قائلًا: كيف؟! ردَّ صاحبنا: أنا حر!

وفي عام ٢٠٠٦ منع "أمن الدولة" ندوةً عن النكتة السياسية كان من المقرَّر عَقْدُها في "ساقية الصاوي" بالزمالك، وكان المتحدِّث هو الراحل الدكتور عبد الوهاب المسيري، الذي كان شَغُوفًا بجمع النُّكَت.

ونكاية في هذا المنع، عقد "المسيري" ندوته في عرض الشارع، حيث وقف يومها في شارع ٢٦ يوليو وتجمَّع حوله عدد كبير من الجمهور مختلف الأعمار، كنت واحدًا منهم، وراح الرجل الطيب بأسلوبه العذب وتواضُعه

المشهور، يحكي لجمهوره الذين انضمَّ إليهم بعض المارَّة الفضوليين، بعضَ النُّكَت التي جمعها بنفسه.

قال "المسيري"، يومها، إن "النكتة مسألة مرتبطة بصميم شخصية الإنسان المصري، فقلبه ينفتح إذا ما اكتشف أن مَن يقف أمامه قادر على النُّكَت، كجزء أصيل من الشخصية المصرية، وهي ليست للتنفيس كما يدَّعي بعض الباحثين، وإنَّما للتفسير، إنها محاولة للتعامُل مع الواقع، بل والاحتجاج عليه عَلَنًا".

وأضاف الأكاديمي الراحل، الذي كان يتكلَّم أفضلَ ممَّا يكتب، أن "حب المصري للنكتة راجع إلى تجربته التاريخية الطويلة التي جعلته يعيش كثيرًا من التناقضات ولحظات الانتصار والانكسار، ويشعر بالقوة والعجز في نفس الوقت، الأمر الذي جعله قادرًا على تطوير رؤية فلسفية قادرة على تقبُّل التناقضات وتجاوزها من خلال التنكيت".

وحكى المسيري هذه النكتة: واحد اتحشر في إشارة مرور فلقى شاب بيخبَّط له على شباك العربية، ولمَّا فتح قال له الشاب: الرئيس مبارك اتخطف، والخاطفين طالبين فدية ٥ مليون دولار، ولو الفدية ما اتدفعتش هيدلقوا عليه بنزين ويولَّعوا فيه، واحنا بنجمع تبرُّعات، تحب تشارك معانا؟

سأله الرجل: والناس بتتبرَّع بكام ف المتوسِّط؟

رد الشاب: من ٥ لـ ١٠ لتر بنزين!

ومات "المسيري" رحمه الله قبل أن يمهله القدر لكتابة كتاب تمنَّى أن يُصدره عن النكتة السياسية، ويقال إنه أنجز فيه عدَّة فصول، لكن ورثته رفضوا نشر الكتاب غير مكتمل.

"الانتخاب غير الطبيعي"

كان الانضمام لـ "الحزب الوطني" سيء السمعة في عصر مبارك، يتمُّ وفقَ نظرية "الانتخاب الطبيعي" المشهورة في علم الأحياء، حيث كانت الانتخابات البرلمانية تأتي بأسوأ الأشخاص وأكثرهم فسادًا وأكبرهم مصالح مع رجالات النظام، إلى مجلس الشعب، ثم يجري ضمُّهم بسهولة لـ "الحزب الوطني"، إن لم يكونوا أعضاء فيه أصلًا، باعتبار أنه مكانهم الطبيعي.

وألقى "أمن الدولة" القبضَ على عضو في الجماعات المتشدِّدة، ثم أخلى سبيله على ذِمَّة القضية، وكلَّف أحد المخبرين بمراقبته.

وفي أول يوم لَقِيَه المخبر في شارع الهرم، فكتب في تقريره "المتَّهم عَدَلَ عن اتجاهه". تاني يوم دخل صاحبنا كباريه، فكتب المخبر: "المتهم عدل عن اتجاهه وتاب وأناب". تالت يوم شافه بينشل في أتوبيس، فكتب: "المتهم عدل عن اتجاهه وتاب وأناب وانضم لـ "الحزب الوطني"!

وتحوَّلت مصر في عهد مبارك من دولة إقليمية كبرى في الشرق الأوسط، إلى شركة أدارها الأَخَّان: "علاء وجمال"، الأول في مجال البيزنس، والثاني في مجال السياسة، فسعى كل منهما لاستقطاع أكبر جزء من ثروتها وسلطتها، وطرح الراحل جلال عامر هذا السؤال البديهيَّ: ما الذي حوَّل مصر من مفتاح المنطقة إلى طفَّاشة لصوص؟ إنها خطط التنمية التي توضع ليلًا بعيدًا عن أَعْيُن الشرطة!

مثل هذا الوضع الغريب، لخَّصَته باقتدار نكتة انتشرت في تلك الفترة، حين كان مبارك في سرير المرض، وأحسَّ أنه مرض الموت، فقال لرئيس وزرائه: وصيَّتك الحكم من بعدي يا نظيف.

- البلد في رقبتي يا ريِّس، كله تمام، والرئاسة بعد عمر طويل لـ "جمال بيه".

دخل مبارك في غيبوبة قصيرة ثم أفاق منها فقال: وصيَّتك الشعب من بعدي يا نظيف.

- ما تخافش يا افندم .. الشعب ياكل الزَّلَط!

غاب مبارك مرة أخرى، ثم استعاد وعيه:

نظيف.

نعم يا ريِّس.

ماتنساش تدِّي لـ "علاء" توكيل الزلط!

وأوقع الإهمال والفساد الشامل في عهد مبارك حوادِثَ مأساوية، منها كارثة انهيار "صخرة الدويقة" التي سقطت على رؤوس عشرات الفقراء فقتلت ٣١ منهم تحت أنقاض البيوت والعشش العشوائية، وحريق قطار الصعيد أبشع حادث شهدته السكة الحديد، الذي لقي فيه ٣٥٠ شخصًا مصارعهم حَرْقًا.

أمَّا الحادث الأكثر مأساوية وبشاعة، فهو غرق العبَّارة "السلام ٩٨" في مياه البحر الأحمر سنة ٢٠٠٦، أكبر كارثة بحرية في تاريخ مصر؛ بسبب شبكة الفساد الضاربة في البلاد، والتي سمحت بتسيير عبَّارَة من مُخَلَّفات الموانئ في عرض البحر.

غرقت العبَّارة التي كان يملكها رجل الأعمال ممدوح إسماعيل، بشراكة زكريا عزمي، رئيس ديوان الرئاسة؛ بسبب عدم صلاحيتها للإبحار، وعلى مَتْنِها نحو ١٥٠٠ راكب، وهرب طاقم السفينة على قارب نجاة تاركين ١٠٣٢

راكبًا للموت في عرض البحر، بالإضافة إلى عشرات المفقودين. وبعد الحادث، ظهر مبارك مع زوجته وولدَيْه "علاء وجمال" في "استاد القاهرة"؛ للاحتفال بفوز المنتخب القومي لكرة القدم ببطولة الأمم الأفريقية.

وحين كان مبارك يزور مدينة "جرجا" في سوهاج لافتتاح مشروع ما، جلس في منزل أحد الأهالي يتبسَّط معه، وسأله: انت ازاي بتعدِّي النيل للبر التاني؟

قال الرجل: بالمعدِّيَّة يا ريِّس.

فقال مبارك بمنتهى الجلافة ضاحكًا: إوعى تكون عبَّارة م اللي بيغرقوا دول!

وهكذا، ظلَّ مبارك محتفظًا بشخصيَّة "المدبّ" عديم الكياسة حتى النهاية، رغم تمرُّسِه في أوساط الحكم والبروتوكول الرئاسي أكثر من ربع قرن. كما ظلَّ على احتقاره الكامل للناس، حتى النهاية. وفي آخر مؤتمر لـ "الحزب الوطني" سنة ٢٠١٠، تحدَّث مبارك عن متابعته لقضايا الساعة، فقاطعه أحد الأعضاء متسائِلًا عن غياب البحث العلمي، فما كان من الرئيس إلَّا أن قال على الهواء مباشرة "انت فاكر يعني هقعد أفرّ كل حاجة ف البلد يعني؟ يا راجل... كبَّر مخك!". والغريب أن هذه التصريح الفريد من نوعه نال عاصفة من التصفيق والاستحسان!

وبينما كانت هذه الحوادث المأساوية والتصريحات البلهاء تضرب المزاج العام في مقتل، واضعة نهاية دراماتيكية لنظام مبارك، اختفت النكتة السياسية تمامًا من الفضاء العام، وهو أمرٌ بَدَا غريبًا ومُنْذِرًا بوقوع حادث جَلَلٍ في تاريخ مصر.

وفي إبريل ٢٠٠٩، كتب د. عمار علي حسن مقالًا بعنوان "سر اختفاء النكتة السياسية"، قال فيه: "لم نسمع نكتة سياسية جديدة منذ عدة أشهر، توارت

السخرية اللاذعة لدى شعب معروف بخفَّة ظِلِّه، وتَهَكُّمِه على كل ما لا يروق له، وانفتح باب التأويل، الذي يلخِّصه سؤال جوهريٌّ مُفادُه: ما هو سر اختفاء النكتة السياسية؟ ومتى تعود للظهور مرة أخرى؟".

أضاف عمار حسن: "وانفتح باب التأويلات، وظنِّي أن التفسير هو أن الهمَّ والغَمَّ قد فاض واستحكم فوقع الناس جميعًا في كآبة سوداء، أفقدتهم القدرة على التَّنَدُّر والضحك وإطلاق النكات، مَرَدُّها انسداد الأفق السياسي، وتردِّي الأوضاع الاقتصادية، وانهيار القيم، واتِّساع التَّفَسُّخِ الاجتماعي، واحتضار الأمل في غدٍ أفضل لدى كثيرين. وطالما كفَّ المصريون عن إنتاج نُكَتٍ جديدة يسخرون بها من الحاكم، ويُنَفِّسون عن المكبوت في أنفسهم، فإنهم يستعدُّون لعمل إيجابي كبير".

وعن الفترة نفسها، قالت نايرة عجّة، أدمن إحدى صفحات "فيسبوك" الساخرة: "المصريين بيطاطوا للحاجة لمَّا بتحصل لكن مبيسكتوش، بمعنى إنهم مش بيدخلوا في مواجهات درامية لكن النُّكَت بتبقى شغَّالة، يعني كل ما وتيرة النُّكَت زادت نعرف إن الناس مش ساكتة؛ لأن السخرية عندهم أسلوب حياة، وبالتالي عند اختفائها يكون ده دليل على وجود شيء في منتهى الخطورة، وبالتالي بدأ القلق خلال آخر ٣ سنين في عهد مبارك، ولا نكتة: لا نكتة سياسية، ولا نكتة تافهة، ولا حتى نكتة خارجة، الناس كانت فاقدة القدرة على إنها تطلَّع أي شيء، لا حلو ولا وحش، النفق كان مظلم ومافيش ف آخره نور".

ويسجِّل د. حسن نافعة عن آخر أيام مبارك "كان كل ما حولنا يَنْضَحُ بالقُبْح، ويفوح منه العفن. فالرجل الذي وصل إلى السُّلطة بطريق الصُّدْفة

في لحظة استثنائية، ولم يُعرف عنه اهتمام يُذكر العمل السياسي في أي مرحلة من مراحل حياته، يتمكَّن من خداع الجميع. ولأنه لم يكن يملك من سمات القيادة أو الزعامة ما يؤهِّله للبقاء طويلًا، فقد تصوَّرنا أنه ضيف عابر، وصدَّقناه حين قال في أول خطاب رسمي إن الكفن ليس له جيوب، وإنه لا ينوي البقاء في الحكم سوى فترة رئاسية واحدة أو فترتين على الأكثر، ثم اكتشفنا تدريجيًّا أن الرجل محدود القدرات والمواهب جلس على كرسي الحكم ٣٠ سنة، ثم استخسره في غيره فأصرَّ على توريثه لابنه من بعده، والشعب جالس يتفرَّج".

"قفا المواطن وكف الضابط".

بعد ٣٠ سنة "جلوسًا" على كرسي الحكم، سقط مبارك ونظامه فجأة سقوطًا مُرَوِّعًا، حين قفزت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ عبر شاشات الكمبيوتر من جميع أنحاء مصر لتصبَّ في ميدان التحرير، قلب القاهرة الغاضب، وحين طرح بعض روَّاد موقع التواصل الإلكتروني فكرة الثورة، وحدَّدوا لها "موعدًا"، فكانت أول ثورة بموعد سابق، إذ تبيَّن لهم -ببساطة- أن مساحة الحرية أوسع من المسافة ما بين "قفا المواطن وكَفِّ الضابط".

وقبل ذلك، كنَّا نؤمن بالشاعر الفرنسي البائس جان آرثر رامبو، حين قال: "إنها عَدَمٌ وهَباء، كل الثورات الممكنة، وحتى المحتَمَلَة".

غير أنه في تلك الأيام المجيدة، تجلَّت للعيان داخل الميدان وخارجه آيات من السخرية السياسية الشعبية، وهي في أَوْجِ تألُّقها وانتصارها، حينما انعقد العزمُ أخيرًا على إسقاط نظام مبارك، وبدا أن الباقي من هذا النظام هو أقل من المسافة ما بين "كف المواطن وقَفَا الضابط"!

قبل ذلك بسنوات، ظهرت موجة من الكتابة الساخرة كَرَديفٍ للنُّكتة السياسية، دخل فيها العاطل والباطل: العاطل من الموهبة الباطل من الكتابة، غير أن ما مكث من هذه الموجة كان كافيًا للتعريض بكل شيء في البلد؛ كشفًا وتشريحًا وتجريحًا في عهود الرؤساء الثلاثة: عبد الناصر والسادات ومبارك.

ونال كُتَّابٌ موهوبون، مثل: بلال فضل وعمر طاهر وجلال عامر وأسامة غريب- من كل شيء في عصر مبارك، بدءًا من التجريف السياسي والاجتماعي والاقتصادي، مرورًا بسيطرة الأب والأم والابن على مقدَّرات البلد، وصولًا

إلى انسداد الأفق العام في وجوه أجيال جديدة ممن وُلِدُوا وعاشوا وبلغوا منتصف أعمارهم وشارفوا على الموت كَمَدًا، تحت حُكْم رئيس واحد، بلغ من كل شيء أرذله.

وبالتَّزامُن مع هذه الموجة الأدبية الساخرة، عادت النكتة السياسية من جديد خلال أحداث ثورة ٢٥ يناير بعد أن اختفت لفترة، عادت بقوة، عندما انجلى الذهن العام، كأي حجر كريم.

غير أن مواقع التواصل الإلكتروني لم تَعُدْ مجالًا صالِحًا لِحَكْيِ النكتة بشكلها القديم، كحكاية لها بداية ووسط ونهاية كما كان في السابق، ففي العالم الافتراضي لشبكات التَّواصُل الإلكتروني، ظهر شكل مُبْتَكر من التَّنكيت السياسي، أصبح بمثابة "مانيفستو" ضاحك يتكوَّن من عبارة واحدة طويلة: رسالة من تلميذ مصري... إلى أعزَّائي المتظاهرين في ميدان التحرير، بخصوص الثورة الِّلي شغَّالة عندكم دلوقت متنسوش إنها هتدخل في مادة التاريخ واحنا اللي بنحفظ، اختصروا من فضلكم!

يقول محمد الخضري: "في تلك الفترة، كانت السخرية بمثابة النار التي سَرَت في الهشيم، خاصَّة على مواقع التواصُل، وارتبطت أكثر بتطوُّر الأحداث، بل زادت حدَّتها وسط المعاناة وتوتُّر الأوضاع، حيث أظهرت هذه السخرية التجاوُب السريع للذهنية الشعبية مع المستجدَّات، فربط المصريون بين معاناتهم الحياتية وبين أسماء مسؤولي آخر حكومة في عهد مبارك، حين تساءلوا: ليه رئيس الوزراء اسمه "نظيف" والتلوُّث قاتلنا؟ ليه وزير المالية اسمه "غالي" والشعب رخيص؟ ليه وزير الداخلية اسمه "العادلي" والشعب مظلوم؟".

وفي الميدان، رفع عشرات المتظاهرين لافتات من وحي اللحظة تطالب مبارك بالرحيل عن الحكم، كتبوا على ورق الكراتين بأقلام الفلوماستر: "ارحل الوليَّة هتولد والولد مش عايز يشوف وِشَّك"، فيما كتب زملكاوي مسكين: "انجِز وارحل ما صدَّقنا الزمالك هياخد الدوري"، ناهيك عن لافتة باسم "رابطة نجارين مصر": يسألون الأسطى مبارك عن نوع "الغِرَا" الذي يستخدمه.

وعاد مبارك إلى النكتة، ربما للمرة الأخيرة بعد ٢٥ يناير، فقد زاره في "مستشفى المعادي" واحد من بلدياته، وقال له: والله يا ريِّس أنا بِعْت القيراطين اللي حيلتي عشان أوظَّف الواد ابني، وبرضه متوظَّفش. ردَّ مبارك: انت تحمد ربنا، أنا بِعْت مصر كلها عشان أوظَّف ابني ومتوظَّفش!

ويسجِّل الكاتب ماهر فرغلي بِلُغَتِه الشاعرية، على طريقة عادل حمودة كيف أن "المصريين علموا الثورة كيف تكون ساحرة وساخرة... دامية ولاهية... موَّارة باللهب، مقدودَة من تَعَبٍ ومن لعب، مُحِبَّة للحرية قدر حبها للحياة".

وشكَّل بعض تلك السخريات السياسية الصغيرة تحدِّيًا للمراسلين الأجانب، خصوصًا أن أنظار العالم كله كانت مشدودةً إلى ميدان التحرير، وكان الرأي العام العالمي الذي لم يسمع بمصر من قبل، يتابع أخبار الثورة المصرية لحظة بلحظة، غير أن المراسلين احتاروا مَثَلًا في تفسير لافتة تقول "إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلا بُدَّ أن يستجيب البقر". وفَسَّر واحد منهم، لم يكن يعرف الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي بالتأكيد، هذه اللافتة بأنه الوصف القديم لمبارك في بداية حكمه: البقرة الضاحكة!

وفي كتاب بعنوان "ترجمة ثورة مصر: لغة التحرير" أصدرته الجامعة الأمريكية بالقاهرة، قالت كانتا روتايرا: "إن مضمون غالبية النُّكَت التي كُنَّا نسمعها مُتَرْجَمَةً أثناء الثورة، انطوى على خلفية اجتماعية وسياسية وثقافية مصرية من خارج نص النُّكتة نفسها، وهو تَحَدٍّ للمترجمين، يتمثَّل في التقاط الفكاهة في هذه النِّكات، حتى عندما لا يكون هناك ما يعادل ذلك في ثقافة اللغة المراد الترجمة إليها".

وفي المرحلة التالية من عمر الثورة التي أعادها "الإخوان" -بأخطائهم إلى المربَّع صفر- طرأ تَغَيُّر كبير على شكل النُّكتة، تلحظه دينا مندور قائلةً: "مع قيام ثورة يناير، استطاع المصريون الوصول بالنكتة إلى مستوى آخر ونموذج أكثر تطوُّرًا، فبعد أن كانت النكتة تتميَّز بطابعها السردي، أصبحت الغالبية العظمى منها تُصاغ فيما لا يزيد عن سطر واحد، فقد أصبحت النكتة قصيرة جدًّا، ومن ثم أسرع في الانتشار من فم إلى أذن في ثوانٍ، فضلًا عن دور أدوات التواصُل الإلكتروني، حيث ساعدت في انتشار النُّكَت أسرع بكثير، وساعدت كذلك في توثيقها، فقديمًا كانت النكتة سَرْدًا وحكاية؛ لأن الاعتماد على السمع فقط، ولكنها أصبحت سطرًا واحدًا وتقضي الغرض، فيما لا يزيد عن ١٢٠ حرفًا على موقع تويتر، أو بوست في سطر على فيسبوك".

وفي مرحلة تالية، تحوَّلَت نُكَتُ الثورة التي كانت تشبه "المانيفستو" الطويل نسبيًّا، إلى "إفِّيهات" صغيرة قليلة الكلمات، ثم إلى نُكَتٍ مصوَّرة "كوميك"، كان بطلها هو الرجل الصيني الضاحك.

وقد يبدو "الكوميك" لأوَّل وهلة فَنًّا جديدًا تمامًا على الثقافة المصرية والعربية، غير أن رسَّام الكاريكاتير "مخلوف" يقدِّم تفسيرًا أوسع أفقًا لكيفية

وجود هذا الفن -بالفعل- في مصر منذ عدة عقود من الزمن، قائِلًا: "كان لدى جيلَيْ الخمسينيات والستينيات من الرسامين ثقة في الثقافة البصرية الموجودة لدى القارئ، وبالتالي انتشرت الكوميديا البصرية التي تعتمد على الكاريكاتير بدون كلام. ولكن مع تدهور التعليم والثقافة البصرية في مصر، وظهور نوع آخر من الكاريكاتير، مثل كاريكاتير مصطفى حسين وأحمد رجب الذي كان يسيطر عليه التعليق- تعوَّد الجمهور على "الإفِّيهات" اللفظية أكثر من "الإفِّيهات" البصرية. ثم بدأت تعود الثقافة البصرية مرة أخرى مع ظهور أدوات التواصل الاجتماعي، والاعتماد على الصورة من جديد في الكوميديا سواء بالكاريكاتير أو "الكوميك".

واعتمد "كوميك" ما بعد ٢٥ يناير، وفق الباحث محمد علم الهدى، على "وجوه تسمَّى (التروِلّات)، وهي صور، ولقطات، ووجوه، تعبيرات شبه ثابتة، ولكنها تتكرَّر في حالات مختلفة، مَهَمَّتُها الأساسية هي تلخيص جملة توضِّح الرأيَ أو رِدَّة الفعل بشكل مرتبط أكثر بالوعي الجمعي المصري".

وكان لكل مرحلة من مراحل ثورة ٢٥ يناير الكوميك الخاص بها، يقول "علم الدين" إن "هناك "ترولَّات" ارتبطت بالثورة، وأحداثها مثل "ترول" (لقد هرمنا) الشهير للرجل التونسي الذي يشدِّد على التمسُّك بفرصة الثورة، وكذلك "ترول" عمر سليمان الشهير لحظة التنحِّي بعد الثورة. ويمكن أن يُضاف إليها "ترولَّات" السخرية من النظام السابق، مثل "ترول" مبارك: "يا راجل كبَّر مُخَّك". و"ترولَّات" رجال وأنصار النظام السابق. كما أن ثمَّة "ترولَّات" ارتبطت بتصريحات قادة المجلس العسكري بعد الثورة، وصولًا إلى تصريحات اللواء عبد العاطي الشهيرة حول "جهاز الكفتة"، ونهاية

بتصريحات السيسي: "إنتوا مش عارفين إنكم نور عينينا ولا إيه"، و"أنا مش قادر أدِّيك".

ويمكن اعتبار "الكوميك" نوعًا جديدًا من النكتة السياسية، ولكن بأدوات عصر الصورة، كما يعتمد في طريقه إلى الإضحاك على آلية عمل النكتة القديمة الشفهية، بما في ذلك إحداث خلل في القياس المنطقي، وتناقض ما يُحكى مع تعليق الشخصيات، إنها ببساطة: نكتة سياسية مصوَّرة.

وبصفة عامة، يرى عادل اسكندر أنه منذ ٣٠ يونيو تضاءلت مساحات السخرية السياسية في مصر إلى أقل حدٍّ ممكن، ربما نتيجة لحالة "الارتباك القِيَمِي" الذي أصاب قطاعات كبيرة من المجتمع المصري، جرَّاء ما حدث.

غير أن بلال فضل يرى أن "السخرية بعد ثورة ٢٥ يناير أصبحت أداة لبناء الوعي الهام، وهو السبب الذي يفسِّر سر حساسية السلطة تجاه هذه السخرية في الفترة ما بعد ٣٠ يونيو أكثر من حساسيتها تجاه النقد العادي، فنفس المحتوى الذي يُكتب في مقال جادٍّ وأكاديمي عندما يُقال بأسلوب ساخر يثير الاستياء أكثر، ممَّا يدلُّ على خطر السخرية".

وفي مقال بعنوان "تاريخ السخرية من رؤساء مصر"، قال علاء الأسواني: "إن مدى قدرة النكت على تغيير الأشياء فعليًّا تظلُّ محلَّ نقاش كثير. فالبعض يدفع بأن المصري يلجأ إلى السخرية كنوع من العزاء؛ لأن وسائل التعبير الأخرى قد تمَّ إغلاقها. وهم يقولون إنه إذا كانت هناك ديمقراطية حقيقية، فإن النكتة السياسية يمكن أن تختفي. بينما يقول آخرون إن المصريين لا يمكنهم ببساطة أن يخوضوا الحياة من دون النُّكَت، وإنهم سيتندَّرون بنفس القدر على الزعماء، سواء كانوا يروقون لهم أم لا. هم يعتقدون أن السخرية

ببساطة هي هواية وطنية، ولا تنطوي على أي موقف سياسي خاص. لكن الفكاهة ليست دائمًا غير مؤثِّرة أو غير ذات صلة بالسياسة. لقد نقلت ثورة ٢٠١١ التي أسقطت الرئيس مبارك، السخرية إلى العلن، تعرَّض السيد مبارك لسخرية، بلا رحمة، بسبب أفقه المحدود، وافتقاره إلى الذكاء وفساده".

ويحدِّد د. أحمد يحيى عبد المجيد، أستاذ علم الاجتماع السياسي، الفرق بين الضحك قبل الثورة بعدها، قائلًا: "إن الضحك قبل الثورة كان للتنفيس، ومن أجل تجنُّب المواجهة السياسية المباشرة؛ لذلك اختفت النكتة نهائيًّا قبل ثورة ٢٥ يناير بعدَّة شهور، بينما يأتي الضحك بعد الثورة كنوع من التذكير بما يحدث، وللتعبير عن الكبت، وليس تنفيسه، مما يهدِّد بانفجار في أي وقت".

النُّكْتَة المصريَّة.. لكنَّه ضَحِكٌ كالبُكاء!

وَكَمْ ذَا بِمِصْرَ مِنَ الْمُضْحِكَاتِ
وَلَكِنَّهُ ضَحِكٌ كَالْبُكَا

المتنبي

النُّكْتَة، مثل الحب في المأثور العربي، أوَّله هَزْلٌ، وآخره جِدٌّ.

وفي كتاب بعنوان "نِكاتُ الهمس في زمن الرايخ الثالث"، وهي فترة حكم النازيِّين الألمان بين عامَيْ ١٩٤٣- ١٩٤٥، يقول الكاتب هانس يواخيم كام: "كانت النُّكَت السياسية السائرة ضد أدولف هتلر ومعاونيه جورينج وهيملر وجوبلز، نوعًا من المقاومة بكل معناها، فمن خلال النُّكَت صار ممكنًا -ولو بالهمس- التعريضُ برجال حكم الرايخ الكبار، وجعلهم أضحوكةً على ألسنة الناس، والنيل من هيبتهم عن طريق تعريتهم على الملأ وكشف نقاط ضعفهم. وهذه النكات جرت مجرى الإشاعات، فالأولى ساعدت على إزالة الخوف من النازيين، بينما الثانية كشفت ما كان مستورًا".

وانتشرت في عصر "الرايخ الثالث" نكتة تقول إن جنديًّا ألمانيًّا مصابًا في المعارك كان يصارع الموت في المستشفى الميداني على الجبهة، وسأله قائده: هل لك وصية؟ قال الجندي: نعم يا سيدي، ضَعُوا على يميني صورة "الفوهرر هتلر"، وعلى يساري صورة "الهر جوبلز" حتى أنتهي كالمسيح مصلوبًا بين لِصَّيْن!

وكان القسُّ الفاتيكاني المتشدِّد في رواية "اسم الوردة" الكاتب الإيطالي أمبرتو إيكو، يُخفي كتاب أرسطو المفقود "الضحك" الذي احتفظ به القساوسة في مكتبة الفاتيكان سِرًّا، باعتباره كتابًا ممنوعًا على العامَّة. وحين يسأل بطل الرواية عن السبب وراء ذلك، يجيبه القسُّ: "إن كل كتاب من

كتب هذا الفيلسوف يحطِّم عِلْمًا من علوم المسيحية، وهذا الكتاب (الضحك) خطر داهم، فلو تمّكَّن الإنسان من تحويل فن الضحك إلى سلاح بارع ضد الخوف، ولو استطاع أن يعوِّض غياب بلاغة الإقناع ببلاغة السخرية؛ لانهارت العلوم المسيحية. فماذا سيكون مصيرنا نحن المخلوقات الضالَّة، حين يغيب الخوف؟ ذلك أن ضحك العامي يُنسيه خوفه من أصحاب السلطة مؤقَّتًا، فيظن بنفسه سيِّدًا".

وبهذا المعنى، تتحرَّك النكتة في المجال العام بتعبير علماء الاجتماع السياسي، لتفعل فعلها تحت السطح كنوع من "المقاومة بالحيلة"، أو كما يقول جيمس سكوت في كتابه "المقاومة بالحيلة.. كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم": "إن معظم الحياة السياسية لدى الجماعات المحكومة لا تقوم في التحدِّي الجماعي المكشوف لأصحاب السلطة، ولا في الرضوخ التام للسيطرة، بل في المجال الواسع بين هذين القُطْبَيْن المتباعِدَيْن".

وترى الأكاديمية الليبية د. مبروكة الوَرْفَلِّي أنه "عندما تنسدُّ المنافذ أمام الكلمة المنشورة والرأي المعْلَن، فإن الكلمة الهامسة السارية، الساخرة من السلطة الجائزة، تغدو مَطِيَّةَ النقد والتقويم. إن المجتمعات التي لم تتطوَّر فيها آليات التعبير الحر، لم تفكر في المواجهة المباشرة مع السلطة بسبب طول رضوخها للطغيان والاستبداد والخوف، بل لاذت بحصن الابتعاد منها، واختارت أن تكسر صمتها باللجوء إلى سبل أكثر ضمانًا للأمن والسلامة، سبل تستطيع بها أن تصرف كبتها وتنتقد واقعها وتسخر من سياسيِّيها وقادتها، ولكن مع البقاء في الخفاء، فكانت النكتة السياسية".

وتضيف د. الورفلي: "ولقد أبقت النكتةُ السياسية على روح المقاومة حَيَّةً،

في مجتمعات تتضاءل فيها مساحة حرية التعبير، أو تنعدم تمامًا، وحافظت على استمرار هذه الروح. وما زالت النكتة تساعد ملايين البشر على التعايش مع ما يحيطهم من عبثية وإحباط ورداءة".

تلك كانت بعض آراء أساتذة علم الاجتماع السياسي في النكتة السياسية، فما الذي "يشخِّصه" خبراءُ الطب النفسي عن التنكيت؟

يضع سيجموند فرويد، رائد علم التحليل النفسي، وأحد أكبر عقول العالم على مَرِّ التاريخ، النكتة السياسية التي أولاها اهتمامًا خاصًّا في خانة "النكت العدوانية" ذات الغرض. ويقسِّم "فرويد" النكت إلى نوعين، هما: نكتة الضحك من أجل الضحك، ويسمِّيها "النكتة البريئة"، والنكتة ذات الغرض "النكتة المغرضة". وفي الخانة الثانية يضع النكتة السياسية: "إننا بتصويرنا المستبدِّ السياسي كأضحوكة، وتصغيره، أو التقليل من شأنه أو تحقيره عَلَنًا، نحقِّق بطريقة غير مباشرة مُتْعَةَ التغلُّب عليه، ولو مؤقَّتًا".

وعلى خطى "فرويد"، يسير الدكتور مصطفى حجازي في كتابه "التخلُّف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور" قائلًا: "إن من أشكال العدوانية التي تشيع ضد المتسلِّط، وتتَّخذ شكل التعبير المقنَّع، العدوان اللفظي بالنكات والتشنيع على اختلافها. إنها ظاهرة لا يكاد يخلو منها مجتمع يعيش أهله في حالة رضوخ، فالتشنيع والتنكيت تعبيران رمزيَّان عن العدوانية التي تعتمل في نفس الإنسان المقهور، حين يستحيل التعبير المباشر، فيهما نَيْلًا من المتسلِّط، وحطًّا من قيمته، وتعاليًا عليه. إنهما نوع من قلب الأدوار الوهمي، حين يُنْعَتُ المتسلِّط بمختلف الأوصاف التي تحطُّ من قَدْرِه، بينما يضحك المواطن المقهور ضحكة النصر".

وللنُّكَت بهذا التفسير النفسي -وفق د. حجازي- "وظيفة تفريجيَّةً واضحة، فهي تصرِّف الحقدَ والعدوانية المتراكمة تجاه المتسلِّط، وتمنع انفجارها إلى الخارج. والمتسلِّطُ المتفهِّمُ لهذه الوظيفة قد يتساهل بشأنها؛ لأنها تردُّ عنه في النهايةِ خطرَ العدوانية المباشرة. فكلَّما زاد التصريف اللفظي للعدوانية؛ انحسر خطر تصريفها في سلوك حركيٍّ عنيف".

غير أن د. الورفلي تنفي هذا الرأي نفيًا قاطعًا، بقولها: "تؤكِّد التجربة المصرية في مجال التنكيت، أن للنكتة تأثيرًا عميقًا في المتلقِّي نظرًا إلى دورها الاستفزازي. فالنكتة جملة موجَزَة، تملك قوَّةً تحريضية تصل قوة الدعوة المباشرة للثورة. وعليه، كان مُرَوِّجو النكتة يُعامَلون معامَلَةَ المحرِّضين على الثورة، أو المتآمرين لِقَلْبِ النظام".

نُكَتٌ أَسْقَطَتْ دُوَلا

من أين ينبع نهر السخرية السياسية العميق، المتدفِّق، في الوعي الشعبي لكل المجتمعات البشرية؟

تلحظ د. دينا مندور أنه "لطالما قدَّمَت السخريةُ والسياسة مثالًا لثنائيٍّ ناجح، فقد كانت النكتة إحدى العناصر الأساسية في إسقاط النظام السوفييتي، كما قدَّمَت حركة (أوتبور) الصربية نموذجًا لكون السخرية أداة فعَّالةً في مواجهة القمع، حيث اعتمدت على الكاريكاتير والجرافيتي لإسقاط نظام الديكتاتور سلوبودان ميلوسيفيتش، الذي حكم صربيا ويوغسلافيا من ١٩٨٩ إلى ٢٠٠٠، وأبدع المتظاهرون الأتراك كذلك في استخدام النكت والسخرية التي أصبحت مرادِفًا لمقاومة انتهاكات حكم رجب طيب إردوغان".

وأُجريَت في إحدى جامعات موسكو منذ سنوات دارسة موسَّعة تحت عنوان "المنجل والمطرقة: تاريخ الشيوعية كما ترويه النكت"، تمَّ خلالها الاعتماد فقط على النكت لتأريخ عصر الزعيم السوفيتي الدموي جوزيف ستالين، أحد أكثر زعماء العالم ديكتاتورية على مَرِّ العصور.

ألقى البوليس السياسي في عهد "ستالين" القبضَ على أحد المتشرِّدين في شوارع موسكو، فسألوه: مَن أُمُّك؟ قال: روسيا، ومَن أبوك؟ قال: ستالين، وما هي أمنيتك؟ أجاب: أن أصبح يتيمًا.

وقال السوفيتي الساخر ميخائيل جوانتسكي "إن الشيء الوحيد الذي أبقى علينا أحياء وأسوياء خلال كل هذه السنين من الحكم الشيوعي كان الفكاهة والنكات. لقد أدَّت بقايا الفكاهة الروسية القديمة الباقية من أيام

الساخرين، نيقولاي جوجول ومَن خرجوا من معطفه، دور المعارضة بجدارة فائقة في بلد لم يكن ممكِنًا أن تقول فيه لأحد من السياسيين: إنك مخطئ إلا من خلال النكتة".

في المقابل، اعتبر الكاتب الأمريكي جريجور بينتون أن "النكت لم تلعب أي دور يُذْكَرُ في انهيار الاتحاد السوفييتي، بل على العكس من ذلك، فقد لعبت دورًا مضادًّا، إذ كان الشيوعيون السوفييت من الذكاء بحيث تركوا مُتَنَفَّسًا لتصريف الكبت السياسي، عبر السماح للمواطنين بتداوُل قدر لا بأس به من النكات، كان بمثابة ضمان ذكي لعدم تصاعد التوتر والاحتقان الشعبي ضد السلطة".

ويفسِّر "بينتون" ذلك بقوله "إن النكتة السياسية قد تخفِّف من وطأة مظالم النظام الحاكم، وتخلق وهمًا جميلًا لدى الناس بأنهم انتقموا من هذا النظام لِتَوَّهِم، بعد أن قال أحدهم نكتةً ضدَّه ثم ضحكوا منه جميعًا، ذلك الضحك الجماعي الذي سرعان ما يتلاشى تأثيره، كما يتلاشى تأثير النكتة بمجرد الضحك منها".

وأصبحت النكتة منذ حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، منهجًا دراسيًّا منفردًا في جامعات أوروبا وأمريكا، وله ارتباط مباشر بعلم الاجتماع السياسي، وعلم النفس، فَتَمَّ "تشريح النكتة" أكاديميًّا في هذه الجامعات بمعرفة الطلبة والأساتذة، بناء على ما بناه من قبل فلاسفة مشاهير، لمعرفة: لماذا تُضْحِكُ النُّكْتَةُ؟

ومن أشهر الفلاسفة الذي كتبوا عن النُّكَت: الفيلسوفُ الألماني إمانويل كانط، أحد أعظم عقول الفكر الغربي. ومن حُسْنِ الحظِّ أن كتابات "كانط"

المعقَّدة كانت أبسط حينما تحدَّث عن التنكيت، قائلًا: "إن النكتة حالة من التوقُّع الشديد، يُدَعِّمها نشاط عقلي فوَّار هو موضوعها الأساسي، لكنها نوع من النشاط لا يصل إلى غايته، بل يتم السير به -فجأة- إلى طريق مغايِرٍ تمامًا للطريق الأول، في النهاية. إن النكتة هي قفزات عقلٍ مَحْضٍ".

ويقول دانييل برلن، وهو عالم نفس كندي: "إن النُّكَت شديدة البساطة، والتي لا تشتمل على أي تناقض، تبعث لدى السامع أقل قدر من الاستثارة العصبية؛ لأنها -ببساطة- لا تحتوي على ما يدفعه لتشغيل دماغه، فالحدُّ المثير للضحك يرتبط بحدوث حالة دهشة من وقوع أمر انتهك حالة "التوقُّع المعقول" لدى السامع، وغيَّر مسارها بطريقة غير مُتَوَقَّعَة بالمرَّة، فيتبيَّن بنفسه مدى ذكاء الربط الخفي بين البدايات والنهايات".

البؤس داء.. والنُّكتة دواء

في كتابه الفريد "قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية"، يلحظ أحمد أمين، الكاتب المعروف، على المجتمع المصري خلال الأربعينيات أن "أشدَّ الناس بؤسًا وأسوأهم عيشة وأخلاهم يدًا، هم أكثر الناس نكتة. ففي القهاوي البلدية، حيث يجلس الصُّنَّاع والعُمَّال ومن لا صَنْعَةَ لهم ولا عمل، وفي المجتمعات الشعبية حيث يجتمع الفقراء والبؤساء، نجد النكتة بينهم تحلُّ محلًّا ممتازًا. وتجد ابن النكتة محبوبًا مُقَدَّرًا، يُفْتَقَدُ إذا غاب، ويُبجَّل إذا حضر. كأن الطبيعة التي تداوي نفسها بنفسها، رأت البؤس داءً، فعالجته بالنكتة دواء".

وعلى قلَّة الاهتمام بدرس النكتة في الثقافة العربية الكلاسيكية، تقليلًا من شأنها، وتَرَفُّعًا عن ضحك العامَّة، أدرك الكاتب عبد العزيز البشري طبيعة عمل أو "ميكانيزم النكتة" حين قال: "إن مَرَدَّ التنكيت هو إلى خَلَلٍ في القياس المنطقي، بإهدار إحدى مُقَوِّمات القياس العقلي العادي، أو تزييفها، أو توصيلها بما تصل به كما لو كانت في حكم المنطق السليم، وهذا هو ما يبعث العجب في نهاية النكتة، ويثير الضحك والطرب".

أمَّا الكاتب السوري نصر الدين البحرة، الذي أصدر كتابًا موسوعيًّا عن الضحك، فيقول "إن مضمون النكتة يجب أن يكون عفويًّا، أو على الأقل مُوحِيًا بالعفويَّة، وأن تكون مفرداته مُرَتَّبَة ترتيبًا ذكيًّا، وتتضمَّن شيئًا من التصاعُد، ينتهي بها إلى ذروتها التي قد تكون أمرًا غير مُتَوَقَّع على الإطلاق. وهذه هي النقطة التي تستطيع فيها النكتة أن تضرب ضربتها".

ويميِّز الكاتب اللبناني أنيس فريحة بين النكتة والفكاهة بِدِقَّة: "إن النكتة،

شديدة عنيفة تصدر عن تعمُّدٍ وتصميم وعقل ذكي، بينما نجد الفكاهة سمحة رَحْبَة، تَصْدُرُ عن عفويَّةٍ وبساطة. والنكتة سريعة، حادَّة، مفاجِئَة، تستأنف إلى العقل مباشرة، بينما الفكاهة تسير ببطء ويُسْرٍ إلى أن تستأنف إلى القلب. النكتة عَمْدِيَّة، والفكاهة عفويَّة".

وفي صدد التمييز بين النكتة والفكاهة، يقول الكاتب البلغاري داميان بارنياكوف إن "النكتة من طَبيعةٍ أخفَّ من النادرة، وأَلْصَقَ بالضحك، وهي تهدف إلى إشاعة البهجة دونما اهتمامٍ بما هو تاريخي أو نموذجي، كما أنها غالبًا ما تكون من وضع خيال مرح لا تهمُّه الحكمة الباقية، بقدر ما تهمُّه البهجة الآنيَّة".

وللنكتة قدرة على "تخريب الوضع الراهن" في أي مجتمع، مهما كانت القبضة الأمنية مشدَّدة والأمور مُسْتَتِبَّة للحُكَّام، وهو أمر معلوم منذ أقدم العصور، فالفيلسوف اليوناني الشهير "أفلاطون" يؤكِّد قدرة الضحك على تخريب أي وضع راهن، أو إفساده بكفاءة عالية، وكذلك قدرته على تحويل خطوط الدفاع القوية للسلطة إلى مجرد أبنية من قَشٍّ.

والضحك في رأي أفلاطون، كما تذكر دراسة عن "الفكاهة والنقد الاجتماعي" أصدرتها جامعة القاهرة، من أشد الخصوم المناوئة للسُّلْطَة، فبضحكةٍ واحدة يكون كل مواطن -بصرف النظر عن منزلته الاجتماعية- حاملًا لقوَّةٍ فعَّالة قادرة على جعل الأشياء المستقرَّة تتداعى، وتسقط متهاويةً هنا وهناك. إن الضحك هنا يقوم بدور محكمة الشعب التي تُصْدِرُ أحكامَها بشكلٍ مباشر وحاسم".

وكشف كتاب بعنوان "ما يُضحك- نِكاتٌ من الملفَّات السرية للمخابرات

الألمانية"، صدر عام ٢٠١٥، عن الملفَّات الخاصة بالنكت التي كانت متداوَلَة في ألمانيا الشرقية خلال الحقبة الاشتراكية.

وذكرت مقدِّمَة الكتاب أن "النسبة الغالبة لحجز الناس في السجون خلال ستينيات القرن العشرين، كانت بسبب عقوبات مُخَفَّفة تصدرها المحاكم على ترويج نِكاتٍ سيِّئة، أي نُكَت سياسية معارضة. وكان أي مواطن في ألمانيا الشرقية يحكي نكتةً تتضمَّن سخرية من الدولة، يُعاقَب بالحبس أو الاحتجاز في معسكر عمل جماعيٍّ لمدة لا تزيد عن ٦ شهور، بتهمة غريبة، هي الاستفزاز التخريبي".

الأبقار المقدَّسة "مَواشٍ عاديَّة"

يُدخل الكاتبُ اللبنانيُّ همَّام الرفاعي النكتةَ السياسية في نطاق الأدب الشعبي التهكُّمي، المعارِض للواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي السائد، كجنس أدبي يتصدَّى للشأن العام، حيث تتمتَّع النكتة السياسية بمزايا استثنائية "تجعل منها سلاحًا نقديًّا فتَّاكًا. فليس للنكتة السياسية مؤلِّفٌ معروف، بل عدد غير محدود من الرُّواة الذين يتفنَّنون في سَرْدِها، وابتكار الإضافات على النص الأصلي حسب مقتضى الحال. ولهذا السبب غالبًا ما تنتشر النكت في صفوف الجماهير انتشار النار في الهشيم، بتواطُؤٍ سريٍّ بين الرُّواة والمستمعين".

وتشترط النكتةُ وجودَ "هامشِ تَحَرُّكٍ سياسي" لدى الفرد، يسمح له بالتفاؤل والضحك، وهما دليل المقدرة على التعامل مع الوضع الراهن بدلًا من الانبطاح الذليل أمامه. لذلك؛ حدَّد الباحث الأمريكي ألكسندر روز -بِدِقَّةٍ- أَوْجُهَ الاختلاف بين التنكيت السياسي في دولة مثل بريطانيا، والتنكيت في مصر، حيث تستهدف النكتة البريطانية السياسيين كأفراد، وتُرَكِّزُ غالبًا على "غباء" بعضهم، أو على فضائحهم الشخصية، إن وُجِدَت.

أمَّا النكتة المصرية، كما يقول "روز"، فهي "تتعامل مع الأمور بشكل أكثر راديكالية، وتُرَكِّزُ على النظام السياسي بأكمله. ولا يُهمُّ هنا مَن هو بطل النكتة، بل المهم هو كشف حجم التناقض والمفارقة بين ما هو مُعْلَنٌ عنه من قبل السلطة الحاكمة، وما هو حقيقي يعيشه الناس على الأرض، بين الوعود الكاذبة والحقائق الدامغة".

ويرى الدكتور محمد داود أنه "في حال الاستبداد والديكتاتورية، يلجأ الناس في مجال التعبير اللغوي إلى الرمزية والمجاز للإفصاح عن رأيهم في واقعهم المر، وذلك حين يعجزون عن التعبير المباشر عن هذه الآلام بسبب الطُّغيان السياسي. وتأخذ اللغة أنماطًا متباينَةً للخروج من سجن الاستبداد، ومأزق الطغيان. ومن أهم هذه الأنماط: النكتة".

ويضيف د. داود: "ولمَّا كان الإنسان حيوانًا سياسيًّا، لا يحيا بغير السياسة، لم يكن له بُدٌّ من التنفيس عمَّا يجيش في صدره من معاناة، عبر أشكال أدبية وفنية تُخفي أهدافه السياسية وراء حِيَلٍ بلاغية أو أسلوبية مختلفة. والنكتة بأسلوبها الضاحك وسياقها الاجتماعي تُغري السامعين بالضحك، وتُلفتهم -في الوقت نفسه- إلى مساوئ الحكم وسلبيات الحكام، بل ربما كان الحكام أنفسهم من المولَعين بسماع النكات التي تُعَرِّض بهم وتذكر مثالبهم ومساوئهم. وما تزال النكتة من أقوى الوسائل في نقد السلطة، خاصة عند المصريين المعروفين بالسخرية والتهكُّم وروح الدعابة الرائقة".

لكن كيف استخدم المصريون هذه التقنيات التي اكتشفتها قاعات الدرس الأكاديمي خلال بحثها عن آليات النكتة؟

يقول د. جمال الرمادي: "لقد استعمل المصريون جميعَ الوسائل المؤدِّية للوصول إلى النكتة، من الخلل في القياس المنطقي، إلى التحايُل في مُقدِّماتٍ مُعَيَّنَةٍ للتوصُّل إلى نتائج مضحكة، سواء بتزييفها، أو باستعمال التورية والخداع اللفظي للوصول إلى هذه النتائج الضاحكة. ولو استقامت المقدِّمات في النكتة مع النتيجة؛ ما حصل الضحكُ، ولانْتَفَتْ الفكاهةُ. وعلى ذلك لا تقف النكتة على قدميها إلَّا إذا كانت مُحْكَمَةَ التلفيق، مُتْقَنَةَ التزييف".

وفي دراسة عن السخرية السياسية المصرية، قال الكاتب الكبير إبراهيم فتحي: "في مصر، كانت السخرية في تاريخها الطويل سلاحًا بين أيدي العامَّة، وبين أيدي الكُتَّاب والشعراء، لا للتَّعْمِيَة وقهر الناس، بل لتحريرهم من الخوف والخَوَر والذُّلِّ والخضوع والنفاق، فلم يعرف كَتَبَةُ الحكَّام الأجانب ولا السلاطين الطُّغاة ولا رموز السلطة الجائرة- السخريةَ باعتبارها نوعًا فنِّيًّا يعبِّر عنهم، بل كانت الجدية العابسة الناطقة باسمهم قائِمَةً على التهديد والوعيد والتخويف. أمَّا السخرية من الأبقار المقدَّسة فكانت تُفقدها مراتب الاحترام، وتحوِّلها إلى مَواشٍ عاديَّة".

ثاني أقدم نكتة في التاريخ

التحق كاتبٌ مُسْتَجِدٌّ بالعمل في خدمة كاهن بمعبد "تحوت"، عِلْمًا أن المعابد الفرعونية كانت بمثابة مؤسَّسات مكتملة تضمُّ كلَّ الصَّنَيْعِيَّة والحرفيين. وانزعج الكاتب بسبب الضَّجَّة المنبعثة من غرفَتَيْ جارَيْه: النَّجَّار والحدَّاد، وليس أسوأ من جيرة واحد يدقُّ وآخر يطرق، ليل نهار.

وأخبر صاحبنا الكاتبُ سيِّدَه الكاهن بذلك، فأعطاه مالًا، وقال له: قَدِّمْه لهما مناصفةً، وقُلْ لهما أن يجدا مكانًا آخر للسُّكْنَى. وقد كان، أخذ الحدَّاد وزميله النجَّار المالَ من الشاب، وفي اليوم التالي انتقل كلٌّ منهما إلى غرفة الآخر!

هذه، على عُهْدَةِ الأثريِّين، هي ثاني نكتة في التاريخ، بعد نكتة سومرية تعود إلى سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد، وُجِدَت مكتوبةً على جدران أحد الحمَّامات العامَّة بموقع أثري جنوب العراق.

والنكتة الفرعونية المدَوَّنة سنة (١٦٠٠ ق. م) سجَّلتها جدران معابد الأقصر، وبها يكون المصريون هم ثاني شعب في العالم تداول النُّكَت، بل إنهم -فوق ذلك- سجَّلوها على جدران معابدهم المقدَّسة، وليس في الحمَّامات العامة؛ دليلًا على التقدير.

ومن أعظم آيات السخرية السياسية في العصر الفرعوني، نَقْشٌ بارز يكاد يصف حال المصريين المستضعفين في الأرض على مَرِّ العصور، وهو عبارة عن صورة لراعٍ بائس وهزيل كأنه هيكل عَظْمٍ متحرِّك، يجرُّ خلفه بحبل ممدود بقرةً سمينةً بشكل مبالَغٍ فيه، في حجم سيد قشطة، يوشك ضَرْعُها الهائل -من فرط امتلائه باللبن المتروك بلا حَلْبٍ- أن يلمس الأرض.

هذا التاريخ الطويل للنكتة المصرية بِعُمْرٍ يبلغ أكثر من ٣٦٠٠ سنة، بلا انقطاع، جعلها قِبْلَةَ اهتمام أجهزة مخابرات وجيوش العالم الكبرى.

يقول هشام جابر: "خلال عام ١٩٧٩، كنت في الولايات المتحدة، أتابع دراسات في الحرب النفسية بكلية الأركان في قاعدة (فورت براج) العسكرية بولاية كارولينا الشمالية. وقد دَرَجَتْ العادةُ في نهاية الدورة الدراسية أن يقدِّم الطالبُ دراسةً عمليَّةً للقيام بعمليات نفسية، أو حرب نفسية، في بلد يختاره وتوافق عليه إدارة الكلية، أو تختاره هذه الإدارة بالتوافق معه إذا اقتضت الضرورة. والفرق بين عبارَتَيْ الحرب النفسية والعمليات النفسية -طبقًا للمنطق الأمريكي- أن الأولى تُنَفَّذ عادةً في بلدٍ نظامُه مُعادٍ للولايات المتحدة، والثانية لدعم نظام حليف".

ويضيف العسكري اللبناني: "وشاءت الصُّدَف أن تكون مصر إحدى (الدول الهدف)، ونظام السادات في حينه اعتبره الأمريكيُّون نظامًا حليفًا، فكان هذا أحد المواضيع المطلوبة للقيام بعمليات نفسية؛ لدعم النظام المصري وإضعاف خصومه. ولم أُفاجأ بأن القَيِّمين على الدراسة أعطوا النكتة في مصر مكانًا مُتَقَدِّمًا -في العمليات النفسية- على الشائعة وبعض الوسائل الأخرى، معتبرين أن النكتة في بلد كمصر تنتشر بسرعة البرق. وكلَّما ازدادت حدَّة وطَرافَة، زادت مساحة انتشارها. فهي تتسلَّل ضاحِكَةً إلى كل بيت ومكتب، لا يقف أمامها حاجز، يسمعها الحاكم موضوع السخرية بعد أن تدور على ألسنة الناس، فيضحك لها أو يغضب منها، لكنه لا يتجرَّأ على منعها عَلَنًا".

وقدَّم ألبير قصيري، الكاتب الفرنسي من أصل مصريٍّ، وصفًا دقيقًا لروح السخرية لدى المصري العادي، ذلك المهزوم الجسور، ففي روايته "ألوان

العار" كتب قصيري: "إن حشود البشر الهائمة على وجهها في تسكُّعٍ صيفيٍّ لا مُبالٍ فوق الأرصفة غير المستوية للقاهرة العتيقة، بدت وكأنها قد تكيَّفَت بِسَكِينَةٍ، بل وبشيء من السخرية اللاذعة، مع التدهور المستمر والذي لا رجعة فيه للبيئة المحيطة بهم. ربما تحدِّثنا أنفسنا بأن هؤلاء الجسورين متواطئون بتسامُحٍ مع العدو الخفي الذي يقوِّض عاصمةً كانت منارةً في الماضي. تلك الجماهير التي لا تؤثِّر فيها المأساة ولا حتى الحزن، أشبه بسيل جارف يحمل معه عيِّناتٍ من البشر أصابتها البطالة بالسكينة: عُمَّالٌ عاطلون، حرفيون بلا زبائن، مفكِّرون خاب أملهم في بلوغ المجد، موظفون مطرودون من مكاتبهم لعجز في عدد المقاعد، خرِّيجو جامعات رازحون تحت وطأة تعليم لم يُؤْتِ ثماره. وأخيرًا، الهازئون الأزليُّون، هؤلاء الفلاسفة الذين يرون أن هذا التدهور المشهود لمدينتهم قد صُمِّم خصِّيصًا لِشَحْذِ حاسَّتِهم النقدية الساخرة. لم يكن يبدو أن هناك شيئًا ما قادرًا على أن يشوب حِسَّ الجماهير الفكاهي، ولا استعدادهم القوي للتهكُّم على كل شيء".

وذات يوم سألني باحث بريطاني كان يُجري دراسة عن الفكاهة الشعبية المصرية: لماذا يضحك المصري العادي من كل شيء؟ فقلت له باختصار: لأنه عاش ٧ آلاف سنة غريب الوجه واليد واللسان في وطنه، فكان على مدار تاريخه إمّا ضحيَّةً لحاكم مستبدٍّ، أو لمستعمر ظالم، أو لهما مَعًا.

وهو نفس ما يذهب إليه د. شحاتة ربيع، أستاذ علم النفس، حين يربط بين الحزن والنكتة في حياة المصريين، ويؤكِّد أن "الناظر غير الخبير قد يرى تناقُضًا بين الحزن والفكاهة لدى المصريين، غير أن دراسة النُّكَت السياسية على وجه الخصوص، تُبيِّن أن هذه النكات رغم قوة تأثيرها في إضحاك المستمع، فهي

تدلُّنا على أن شدة الألم والحزن الذي يشعر به المصري في فترات الشدائد هي سِرُّ إطلاق النُّكَت القوية، ويؤيد ذلك أيضًا قِلَّةُ تداول النكات في فترات الرخاء".

ويلخص سامي الزقم أحوال المصريين على مرِّ التاريخ تلخيصًا دالًّا، يقول: "إن المواطن ساكن هذه الأرض يعيش ولا يحيا منذ آلاف السنين، عانى ضعف المشاركة في الدفاع عن بلده وإبداء رأيه فيما يخصُّه، فعرف أن الغلبة للمحظوظ وليس للمجتهد، وأن لا مكان للعالم ولا المفكر ولا المخلص، فطريقه مسدود مع رأس السلطة، حيث البطانة من هواة التلميع وسد الخانة، فأصبح المواطن لا يصدق ما كان، لا ما هو كائن، ولا أمل عنده في ما سيكون".

وفي المجال العام، أكل معظم أعضاء البطانات والنُّخب خلال عصور عبد الناصر والسادات ومبارك ناسهم، وخانوا الأوساط الشعبية الفقيرة التي خرجوا منها بالاجتهاد أو بضربة حظ، فلم يكونوا أبدًا لسانَ حال الناس في نقد الأوضاع السائدة وكشف سوءاتها على الملأ، بل كانوا -للمفارَقة- أدواتٍ في يد السلطة ضد الشعب، فأصبحوا رجال كل العصور.

يقول صلاح عيسى في شهادة دامغة على عصور هؤلاء الرؤساء: "بين صِبانا وكهولتنا عرفنا أنماطًا من المثقَّفين يفهمون الثقافة على أنها لسان ذَرِبٌ، وقلم سيَّالٌ، وعقل يملك مهارة الاحتيال على الحق فيصبح باطلًا، وعلى الأسود ليجعله أبيض، يلعبون بالأفكار ويضحكون على الذقون، ويسربلون أدنأ الأغراض بأنبل الشعارات. ومعظَّم هؤلاء -للأسف الشديد- من أصول اجتماعية متواضِعَة، نحتوا بأظافرهم في الصخر طريقًا صعبًا وداميًا ليصعدوا من أسفل السُّلَّم

الاجتماعي، إلى حيث يصبحون أقرب ما يكونون إلى القمة. وحين يجدون أنفسهم هناك، تأسرهم أضواء الكاميرات، ويفقدون تقدير أنفسهم، فيستكثرون ما وصلوا إليه، ويعضون عليه بالنواجذ حتى لا يضيع، ويتملَّكهم رُعْبُ السقوط إلى القاع الذي صعدوا منه؛ خوفًا من أعباء الانتماء إلى الفقراء الذين كانوا منهم يومًا، ورُعْبًا من السجون والفصل والتجميد، فيتطوعون لتبرير كل ما يفعله السادة، ويقنعون أنفسهم أن الثقافة حِرْفَةٌ كالحِدَادة والسِّباكة والنجارة، وكما أنه ليس من حق الحرفي أن يرفض عملًا، اعتراضًا على ربِّ العمل، فليس من حق المثقف أن يَضِنَّ بحرفته على أي نظام حكم".

أما عن البديل السياسي الممكن، فيقول الكاتب طارق المهدوي: "نجحت الأجهزة السيادية المصرية في مهمة السيطرة على كل بدائل النظام السياسية ذات الحضور القائم فعلًا أو المحتمَل قيامه، باستخدام ثلاثة محاور مجتمعة أو منفصلة، وهي: محور احتواء الشخص المستهدَف لتحويله من الخصومة أو الاستقلالية إلى التبعية. والمحور الثاني هو التخلُّص من الشخص المستهدَف عبر إزالته أو تقييده أو إتلاف عقله. أما المحور الثالث، والأخير، فهو تشتيت الشخص المستهدَف واستنزافه؛ بهدف إرباكه وإنهاكه، وصولًا إلى إشغاله التام عن أي أنشطة خارج دوَّامة التشتيت".

لذلك؛ كانت النكتة هي ذلك "السلاح السرِّي الفتَّاك" في يد الناس، كما يقول كامل الشناوي، ذلك السلاح الذي "يتسلَّل إلى قصور الحكَّام وحصون الطغاة، فَيَقُضَّ مضاجِعَهم، ويملأ صدورهم بالرعب والقلق والعُزْلَة".

وبشهادة السياسي السوداني الصادق المهدي "لقد صار الشعب المصري أستاذًا في النكتة، لا سيَّما السياسية منها، وقيل إن أكثر عهد تكاثرت فيه

النكت السياسية في مصر هو عهد الوالي قراقوش، الذي ولَّاه صلاح الدين الأيوبي حُكْمَ مصر نيابةً عنه. وقيل إن قراقوش هذا كان قاسيًا ظالمًا جاهلًا، فمزَّقته النِّكاتُ إربًا".

ويقول الراحل سيد عويس، أحد كبار العارفين بالمجتمع المصري: "إن النكتة السياسية السرية تعبيرٌ عن رأي عامٍّ في بعض القضايا، يلجأ إليه الناس إذا ما سُدَّت في وجوههم منافذ التعبير الأخرى، أي عندما لا تتوافر لهم أساليب تفريغ الشحنات العدوانية الناتجة عن قسوة العيشة، أو عن شدَّة الكبت السياسي".

ويُعَدِّدُ عويس ١٠ مُتَنَفَّساتٍ أو طُرُقًا يلجأ إليها أفراد المجتمع المصري لمواجهة سوء الحظ ومختلف أنواع الظلم، وهذه المتنفَّسات تتدرَّج صعودًا من: اللامبالاة إلى النفاق إلى التهكُّم، وحتى الهجرة والتمرُّد والثورة. وإن الشرائح التي تعاني الإذلال والمهانة تلجأ إلى تلك المتنفَّسات يومًا بعد يوم في علاقتها بصاحب السلطة، حتى أصبح كل الفراعنة، عظامًا أو صغارًا، وهم الذين اشتركوا في احتقار واستغلال الشعب لـ ٥ آلاف سنة مضت، هدفًا منتظمًا لسخرية المصريين.

التحشيش والتنكيت "باسم الشعب"

إذا كان الفيلسوف الألماني فالتر بنيامين يعتبر حالة الصفاء العقلي التي تنتاب مدخِّنَ الحشيش نوعًا من "الاستنارة المدنَّسَة"، فإن للأمر -فيما يبدو- وجهًا آخر طاهِرًا، يكشف عنه سامي علي الأكاديمي الفرنسي من أصل مصري، أستاذ علم النفس بجامعة باريس، في كتاب المثير بعنوان "الحشيش في مصر: مقال في علم الإنسان التحليلي".

يكشف سامي علي "من حشيشة الكيف السحرية تَسْتَقْطِرُ المُخَيِّلَةُ الشعبيَّةُ في مصر -كعادتها- ضربًا من الفكاهة تجمع فيه بين المتناقضات والخبث، وهي في ذلك تنجح في الابتعاد عن موضوعها بُعدًا أمثل، يتيح لها التعبير بمزيج من التهكُّم والرِّقَّة عن جوهر خبرة لا تخلو من الرعب. وهنا تتجلَّى قدرة على ابتكار النكت، كثيرًا ما تختفي وراء الموضوعات التي تخلقها، وهي لا تزال تنقل هذه الخبرة نَقْلًا غير شخصي، ماكرًا وساذجًا في آنٍ واحد".

والحشَّاش المصري، في رأي الأكاديمي الفرنسي، صانع نكتة من الطراز الأول، وهو لا يتقصَّى بينما يفعل ذلك الضحك للضحك فقط كما يبدو في الظاهر السطحي، بل إنه يحمل على كاهله مَهَمَّةً أكثر جديَّةً وسُمُوًّا، وهي "التنكيت باسم الشعب".

ذلك أن التراث الشعبي السائد في مصر خلال القرن العشرين، كما يقول سامي علي: "يكشف عن القيمة الاجتماعية الحقيقية لشخصية الحشَّاش، بوصفه فردًا قادِرًا على الاستدلال المنطقي رغم كونه غير خاضع للمنطق، مبتكِرًا لا يُجارَى في تخيُّل الحلول الوهمية، مُعْدَمًا يباري ذوي الجاه والسلطان، يتحدَّث باسم الشعب أمام السلطة التي تسعى إلى سحق الناس، بينما هو مستمر في الحياة، لا يبالي".

ويرى أستاذ علم النفس أن نُكَتَ الحشيش ذات الطابع السياسي "تبدو في سياق التاريخ المصري الحديث، وكأنها محاولات لحل صراع بين المُعدمين والسلطة التي تتجسَّد في الحاكم، وهو صراع يتمثَّل في موقفين على طرفَيْ نقيض: خضوع يُضفي على الهرم الاجتماعي معنى قَدَرِيًّا لا سبيل لرده، أو تمرُّدًا واعيًا ببطلان أي نظام سياسي أصله الظلم. والفولكلور الريفي في مصر ما زال محتفظًا بآثار هذين الاتجاهين الصادرين عن نظرة واحدة للعالم. غير أن كتابًا مثل (ألف ليلة وليلة) يشهد بأن لدى المصريين موقفًا ثالثًا، وإن كان صعب التصوُّر، إنه: تذويب معطيات المشكلة في لاذع نكات حشيشة الكيف".

هذا الكلام عن التأثير السياسي للحشيش في الشارع المصري، على الأقل في باب التنكيت، ليس من باب الولع الفرنسي الشهير بغرائب الشعوب المتخلفة، بل هو حقيقة أكَّدها بحثٌ أكاديميٌّ آخر أُجْرِيَ في "مركز البحوث والدراسات الاجتماعية" التابع لكلية الآداب جامعة القاهرة، بمعرفة الباحثين: شاكر عبدالحميد ومعتز عبد الله وسيد عشماوي، بعنوان "الفكاهة وآليات النقد الاجتماعي"، حيث ربط البحث في إشارة عابرة -وعلى استحياء- بين التعاطي والتنكيت عمومًا، بما في ذلك النُّكَت الاجتماعية والمناطقية "نُكَت الصعايدة" وليس النُّكَت السياسية فقط. ونقلت الدراسة عن محمود السعدني قوله: "إن النكتة بكل أنواعها تزدهر عندما يرخص الحشيش".

ورغم أن محاذير غير علميَّةٍ تخصُّ سُمْعَةَ المخدِّرات حالت دون درس العلاقة الطرديَّة بين التنكيت السياسي والتحشيش، إلا أن هناك نكتة أو بالأحرى "إفِّيه" ظهر خلال ثورة ٢٥ يناير، حيث كانت المخدِّرات بكل

أنواعها قد اختفت بقدرة قادر قبل عدَّة شهور من الثورة، وكأنها حنفية يتمُّ إغلاقُها وفتحها بمعرفة أجهزة الأمن نفسها.

وهذا "الإفِّيه" قد يؤكِّد أن ذلك الربط أكثر صدقًا وحقيقية مما نتخيَّل: استدعى حسني مبارك وزيرَ داخليته حبيب العادلي يوم ٢٨ يناير، بعد أن خرجت الأمور عن السيطرة، ووبَّخه قائلًا: نَشِّنْت يا فالح ومنعت الحشيش؟!

وهذا فرنسي آخر درس النكتة المصرية، هو المستشرق ميشيل دي كيرتو، الذي يقول: "رغم أن شبكة المراقبة تتغلغل في كل ركن من أركان الحياة في مصر، إلا أنه يتساوى مع هذه الحقيقة في الأهمية أن نكتشف عدم سيطرتها على المجتمع ككل، فهناك هذه المواضعات الشعبية شديدة البساطة والعادية، ومنها النُّكَت، التي تتعامل مع آليات الانضباط التراتُبِيِّ الراسخ في المجتمع المصري، وتنساق له بالقدر الذي تتمكَّن من تشويهه فقط!".

لقد ظلَّت النكتة المصرية بتجلِّياتها المختلفة عنوانًا على حقيقة الجمهورية الأولى منذ عام ١٩٥٢ حتى الآن، من وجهة نظر الجماعة الشعبية التي أسقطت حُكَّامَها المتعاقبين من قمة السلطة إلى قاع الحقيقة، لكي يعلموا أن هذا الشعب الذي يبدو في الظاهر صامتًا مُسْتَذَلًّا مُهانًا، ليس كذلك، بل هو يتجلَّى في شكل ضحك ساخر يطيح بكل من حاول إهانته أو إذلاله يومًا ما.

العرب يُنَكِّتون "بالمصري"

"مَن يطلب النكتة في العالم العربي فلا ينظر إلى
الكاريكاتير، بل إلى السياسة"

ناجي العلي

ذات يوم من التسعينيات، حكى لي صحفيٌّ سوريٌّ مغامِرٌ، اسمه "لامع بارواي"، كان في زيارة للقاهرة، بعد "رهان" وضعناه بيننا وخسرته، ٤٩ نكتة ضد الرئيس الراحل حافظ الأسد وأسرته ورجال حكمه، في سهرة واحدة، معظمها نكت إيروتكية فاضحة مستحيلٌ نشرها.

وأضاف "باراوي"، وكان كرديًّا ظريفًا، أن النكتة الـ ٥٠ التي راهنني عليها هي الجملة التي لا بُدَّ أن يختتم بها أيُّ اثنين من السوريين كلامهما، مهما كان موضوع الحديث؛ تَحَسُّبًا لأن يكون كل منهما عنصرًا في المخابرات: "عاش ريِّسنا.. مِعَلِّي راسنا"!

حكى "بارواي" -وهذه أخفُّها- أن رجلًا اعتاد إطلاق النُّكَتِ على الرئيس "الأسد الأب" فاعتقلته المخابرات السورية، وقام رجال الأمن بتعذيبه فوعدهم بعدم تكرار فعلته. وبعد أن أخلوا سبيله، عاد الرجل من جديد إلى عادته القديمة، واعتقله رجال الأمن مرة أخرى، فقال لهم: إن النُّكَت مثل التدخين؛ عادة سيئة لا أستطيع التخلُّصَ منها، فأمروه أن يقول بعد كل نكتة "بس الرئيس يعطيه العافية ما دخله في شي"، أي لا دخل له في أي شيء مما حَكَى، وحين خرج الرجل من المعتقل للمرة الثانية، أخبر مجموعة من أصدقائه أن زوجة الرئيس حامل... بس الرئيس يعطيه العافية ما دخله شي!

وعن السخرية السياسية العربية عمومًا، يقول السياسي اللبناني الراحل سليم الحُصُّ إن "السخرية ذات الطابع السياسي في المشرق العربي موضوع

طريف، ولكنه يحمل من المعاني ما لا يمكن تجاهله. فالظُّرف السياسي هو وسيلة للتعبير الاعتراضي يلجأ إليها المواطن أحيانًا كثيرة، عندما لا يجد للنقد المباشر مُتَّسَعًا في الحياة العامة. فحيث الديمقراطية ناشطة وفعَّالة، أي حيث للاعتراض دور معتبر في الحياة العامة، تعبر عنه الصحافة وسائر وسائل الإعلام في تعليقاتها وافتتاحياتها، كما يعبِّر عنه ساسة البلد في أحاديثهم وتصريحاتهم، فإن النقد السياسي يشكِّل جزءًا لا يتجزأ من السجال الذي يشغل الحياة العامة. أما في البلدان التي تفتقر إلى شيء من الديمقراطية في الحياة العامة، فكثيرًا ما لا يجد المواطن مُتَنَفَّسًا له في انتقاد ممارسات السلطة أو سلوك ومواقف أهل السياسة سوى الطُّرْفَة أو النكتة، هنا يصبح الظرف السياسي بمثابة البدل عن ضائع، أو بمنزلة الرديف للممارسة السياسية. كذلك هو الأمر في بلادنا العربية، حيث تسيطر السلطة على أجواء الإعلام عمومًا، فلا تسمح للنقد السياسي بالتسرُّب إلى التعليقات أو الأحاديث بشكل شافٍ؛ يكاد الظرف السياسي يحلُّ مَحِلَّ النقد المباشر. وقد اشتهرت الشقيقة مصر وتميَّزت بهذا الضرب من النقد، ثم انتشر في بلدان عربية أخرى".

وفي وقت ما، كنت أكتب دراسة عن النكتة العربية عمومًا لحساب جهة بحثية، فتبيَّنْتُ أن كل العرب باستثناء دول الخليج ذات الظروف الخاصة، اقتبسوا النكت المصرية كما سمعوها على مدار الخمسين سنة الماضية، ثم فصَّلوها على أنفسهم بأن وضعوا أسماء رؤسائهم بدل عبد الناصر أو السادات أو مبارك، فأصبحوا -ببساطة- يُنَكِّتون "بالمصري".

الرئيس "حافظ الأبد"

يقول بوعلي ياسين إن "من بين موضوعاتها السياسية الاقتصادية، تعكس النكتةُ المتناقَلَةُ عربيًّا الهمومَ اليوميَّة للمواطن العادي. وأستطيع الادِّعاءَ أن إيراد هذه النكت، حتى دون شرح أو تعليق، يُغْنِي عن إعداد تقرير ميدانيٍّ مُفَصَّلٍ بأحوال الناس المعيشية. فإذا كان المواطن العربي العادي -كسبب داخلي- قد تهيَّب، أو -كسبب خارجي- قد مُنِعَ من الإفصاح عن همومه المعيشية، فإنه عبَّر عنها من خلال النكتة. هو -في الحقيقة- يعبِّر باسِمَ الثَّغْرِ عمَّا يُبكي قلبَه".

ولمَّا كان عبد الناصر، وهو كبير الزعماء العرب، حذَّر من النكت علانيةً في خطابين على الأقل من خُطَبِه التاريخية، فقد ساروا جميعًا سيرته في تجريم التنكيت، كوسيلة لنقد أي سلطة مستبدة. وهذا هو الميراث الناصري الوحيد تقريبًا الباقي، كشيء عابر للأزمنة.

وتقول د. الورفلي: "لقد خافت السلطات العربية من النكتة ورأت فيها قوة تحريضية لا يُستهان بها. وفي ظل سيادة القمع والاستبداد تصبح المقاومة مغامَرةً محفوفة بالمهالك، لكنها لا تكون مستحيلة، فالشخص الذي يعيش ظروفًا تصادر الرأي الآخر ولا تتسامح مع حرية التعبير، لا يَعْدَمُ وسيلةً للحفاظ على روحه المعنوية عالية. وقد قدَّمَت الثقافةُ الكلامية العربية نموذجًا لنوع المقاومة الذي تتخذه الجماعات الخائفة: المقاومة المقنَّعة، فهي الوسيلة الآمنة التي تُبقي المتكلِّمين قَيْدَ الخفاء، بعيدًا من الرقابة، وفي مأمن من الاعتقال".

وإذا كانت مصر هي الأولى عربيًّا بلا منافس، فإن سوريا تحتلُّ بجدارةٍ

المرتبةَ الثانية في مجال التنكيت السياسي، وهي صاحبة تاريخ حافِلٍ بالظُّرَفاء الكبار.

ومن هؤلاء الرئيس الراحل شكري القُوَتْلِي، وحكى لي المطرب السوري صباح فخري أن "القوتلي" قال لـ "عبد الناصر" في جلسة خاصة بعد تسليمه رئاسة "الجمهورية العربية المتحدة" عشيَّةَ إعلان الوحدة مع مصر عام ١٩٥٨: "سيدي الرئيس، أنت لا تدري من أي أعباء أرحتني، لقد حرَّرْتَني من كوني رئيس دولة يعيش فيها ٥ مليون نسمة يعتبرون أنفسهم ٥ ملايين سياسي بامتياز، نصفهم يعتقد أنه مُصلِحُ العصر والأوان، ونصفهم الآخر لولا بقيَّةٌ من خَشْيَةٍ لزعموا أنهم أنبياءٌ ومُرْسَلون"!

والنكتة السورية أشدُّ عُنْفًا من المصرية، وأكثر انكشافًا على المحظورات يبلغ أحيانًا حد الفحش، وهي لا تتورَّع عن الضرب تحت حزام السياسيين، أو عن الخوض في أعراضهم علنًا.

وتحكي الكاتبة الأمريكية ليزا وادين في كتابها "السيطرة الغامضة"، عن تجربة استمرت ١٠ سنوات عاشتها في سوريا تحت حكم حافظ الأسد، حيث صوَّر الخطابُ السياسيُّ الرسمي "الأسد" على أنه حاضر في كل مكان وزمان، عليم بكل شيء، ضليع في كل المهن، فظهر الرجل خلال جولاته الميدانية التي كانت شُغْلَ الصحف وأجهزة الإعلام الشاغل، في أدوار تمثيلية كثيرة: الأب، المناضل، رمز الصمود والتصدِّي، القائد الأبدي، المعلم الأول، والجندي الأول، والعامل الأول.

هذه هي الصورة المزيَّفَة، ولكن المصَدَّقة رسميًّا كأنها الشمس في رابعة السماء، كما يقولون. أمَّا الحقيقة التي كان يعرفها الجميع داخل وخارج

سوريا كما تقول "وادين"، فهي أن الأسد هو ذلك "الجنرال الاشتراكي الذي يتسلَّح من الاتحاد السوفيتي الصديق، ويسكر من الولايات المتحدة العدو، ويتغذَّى من الجبن الهولندي، ويتعشَّى من الكافيار الإيراني، ويلبس من موضات باريس".

حَكَمَ الأسدُ البلادَ ٣٠ سنة، بدءًا من عام ١٩٧٠ كرئيس وزراء لمدة سنة واحدة، ثم ٢٩ عامًا كرئيس جمهورية. وقامت خلال هذه العقود الثلاثة دُوَلٌ، وانهارت دول، بل سقط "الاتحاد السوفيتي الصديق" نفسه، أمَّا هو فبدا أنه لن يسقط أبدًا.

وإمعانًا في الزراية بجميع أعداء الداخل والخارج معًا، أطلق حزب "البعث" الحاكم في كل مكان على أرض سوريا شعارًا نَصُّه: "قائدنا إلى الأبد، الأمين حافظ الأسد"، فاشتهر الرجل بناء على ذلك في العالم العربي باسم الرئيس السوري "حافظ الأبد".

وجاء أحدهم إلى مفتي سوريا، وقال له: رأيت يا مولانا في المنام المرحوم فريد الأطرش وهو يركب "البساط السحري" هابطًا من أعالي السماء، ثم يقترب من قبة الجامع الأموي في دمشق، وفجأة يلتقي "فريد" صُدْفَةً مع السيد الرئيس حافظ الأسد، قائدنا إلى الأبد، حين كان يصلِّي صلاةَ العيد في باحة المسجد، وركب الاثنان البساط وطارا في السماء، ما تفسير هذا الحلم؟

قال المفتي: هذه بشارة يا بُنَيَّ تؤكِّد أن المرحوم "فريد" سيُبعث إلى الحياة من جديد، لكي تنعم جموع الشعب العربي السوريِّ وكافَّة الشعوب العربية الشقيقة بصوته العذب الشَّجِيِّ!

وقد يختلف شكل النكتة أحيانًا بين مصر وسوريا، لكن وجه الشبه بين

السادات والأسد، رغم العداء القديم بينهما، ظاهرة تمامًا. كان الأول يُجري استفتاءات رئاسة على حكم مصر تأتي نتائجها "نعم" بنسبة ٩٩,٤٪، وتزدان شوارع القاهرة في كل وقت بلافتات مؤيِّديه، وعلى رأسهم المطربة البرلمانية فايدة كامل، بينما كان الأسد يحصل على ٩٩,٩٪ في الاستفتاءات، وكانت لافتات تأييده "نعم للأسد" وتماثيله موجودة في كل شارع ومؤسسة مدنية أو عسكرية في سوريا، إلى حَدٍّ أن إعلام الدولة كان يسمِّي البلدَ في نشراته الإخبارية عند الحديث عن الصمود والتصدِّي "سوريا الأسد"!

اضُطرَّ رجلٌ إلى دخول دورة مياه عمومية في أحد شوارع منطقة "سوق الحميدية"، فلم يجد بها سوى حمَّامٍ واحد وكان مشغولًا، فراح الرجل يدقُّ بنفاد صبر على الباب المغلَق، أجابه شخص كان في الداخل: "نعم". دَقَّ مرة ثانية، فقال نفس الشخص: "نعم.. نعم"، فزعق فيه الرجل: خلِّص يا زلمة، هاي بيت راحة مو لجنة استفتاء!

وفي أوائل الثمانينيات، تولَّى رفعت الأسد شقيق الرئيس إدارةَ جهاز سيء السمعة اسمه "سرايا الدفاع"، كان مكوَّنًا من شبيبة حزب "البعث" الدمويين، وكان مجرد ذكر هذا الجهاز كفيلًا بأن يبعث الرعب في كل أنحاء سوريا.

وذات ليلة أوقف ضابط شاب في "مكمن شرطة" الرئيس الأسد، الذي كان يقود سيارته بمفرده دون حراسة، وطلب الضابط منه بطاقته ورخصة السير، فقال له دون أن يطلع أي أوراق: "أنا الرئيس حافظ الأسد يا ابني". غير أن الضابط الشاب الأرعن الفرحان بشبابه ورتبته، هدَّد الأسد بالقبض عليه فورًا إن لم يُبرز أوراقه، وتعالَت أصواتُ الطرفين، حتى حضر ضابط كبير برتبة لواء يجري إلى المكان، وهو يحني رأسه خجلًا واعتذارًا، وأمر بفتح الطريق فورًا

للرئيس، وبعد انصرافه بسلام شَخَطَ اللواء في الضابط: بِدَّك تخرب بيوتنا؟.. إلَّك ما بتعرف إنو هيدا الرجَّال أخو رفعت الأسد!

والنكتة الأخيرة -في الأصل- نكتة مصرية كان بطلها حسني مبارك بدلًا من حافظ الأسد، ورفعت الأسد بدل علاء مبارك، عندما استفحل نفوذ الأخير في البلد. وهو ما يؤكِّد أنه مهما اختلفت الدول العربية، فإن الظروف السياسية واحدة.

أما هذه فقد انتشرت بِنَصِّها في مصر، ثم حرَّفها السوريُّون: دخل الرؤساء الثلاثة جيمي كارتر وليونيد بريجنيف والأسد في مسابقة لاستعراض الولاء، فكان على الحارس الشخصي لكل واحد منهم أن يحمل رئيسه فوق رأسه، ويعبر به بحيرةً مليئة بالتماسيح الطافية. وحمل الحارس الأمريكي "كارتر" أوَّلًا رئيسَه حتى حافَّة البحيرة ثم اعتذر عن المهمَّة قائلًا: "عندي أطفال أريد أن أربيهم". وجاء دور الحارس الروسي فحمل "بريجنيف" ثم تراجع بدوره عند الحافَّة، وقال "عندي أطفال أريد أن أربيهم".

وهنا أتى دور الأسد فحمله الحارس عابِرًا به البحيرة، ونجح في الإفلات من التماسيح بأعجوبة، ووصل لاهثًا إلى الشاطئ الآخر فسأله زميلاه وهما مرعوبان: كيف فعلت هذا الفعل الجنوني؟ قال: عندي أطفال أريد أن أُرَبِّيَهم!

ومرَّ موكب الأسد بجوار القنصلية الأمريكية في دمشق، فلاحظ الرئيس أن هناك طابورًا لا نهاية له من المواطنين السوريين، يمتدُّ خارج السور حتى باب القنصلية إلى آخر الشارع، فأمر بوقف سير الموكب وأرسل أحد حُرَّاسَه ليستفسر عن ذلك، وقال الحارس فور عودته "ما حدا بيعرف شي فخامتك"، فنزل الأسد بنفسه وطلب مقابلة القنصل الأمريكي، فأخبره الأخير: إنهم

يريدون تأشيرات هجرة يا سيدي الرئيس، قال له: أعطني تأشيرة فورصا، فأعطاه بعد أن أجرى اتصالاته بواشنطن.

ولمَّا خرج "الأسد" لم يجد أحدًا، فسأل أحد حُرَّاسه: وين راحوا الناس؟ قال الحارس: علموا أن فخامة القائد أخذ تأشيرة هجرة لأميركا، قالوا خلِّينا هون!

وإذا النكتة السابقة مصرية ١٠٠٪، فإن هناك نُكَتًا سورية خالصة، مرتبطة بطبيعة الشوام وعاداتهم، ومنها إطلاق لقب "كنية" على كل شخص غيَّر اسمه، بحيث يكون مشهورًا بها أكثر من الاسم.

وكانت كُنية الأسد في بداية حكمه هي "أبو سليمان"، قبل أن يصبح فيما بعد "أبو باسل" على اسم ابنه الأكبر. وصدر عفو رئاسي عن مجموعة من المساجين في مناسبة ما. ووقف حرَّاس السجن على البوابة يُلَقِّنون المُفْرَجَ عنهم تحيَّةَ الخروج، فأمروا الأول بأن يهتف "الله يخلِّي قائدنا أبو باسل رمز الصمود والتصدِّي" ففعل، فأطلقوا سرحه، وأمروا السجين الثاني، ففعل. أما الثالث فلم يكن يعرف أن كنية الأسد تغيَّرت وهو في السجن، فقال للحراس: وإيش صار لأخو الجحبة "أبو سليمان"؟!

ودخل رجل السينما مع طفله. وقبل عرض الفيلم أذيعت أخبار سياسية مطوَّلَة، وظهر الأسد وهو يفتتح أحد المشاريع الوطنية، ثم وهو يستقبل أحد السفراء. وشعر الأب بالملل فراح في النوم حتى يبدأ عرض الفيلم. وفجأة انتبه لطفله وهو يسأله بصوت سمعه كل من السينما: بابا بابا.. مش هاديك الرجَّال اللي كل ما يظهر في التلفزيون عم بتسبُّه وتنعل أبوه؟

أحسَّ الأب أن نهايته اقتربت، فرفع طفله إلى أعلى لكي يراه الجميع هاتفًا: لمين ها الولد؟!

تقول ليزا وادين "إن التنكيت على حافظ الأسد ونظامه، يشير بوضوح إلى الفجوة الكبيرة بين الامتثال لأكاذيب النظام عن القائد الفرد الملْهَم، وبين التصديق بكل ذلك. إنه -أي التنكيت- جزء من مجال شعبي سرِّيٍّ يمثِّل بديلًا للمجال الذي تتحرَّك فيه السلطة، وتحاول أن تُحرك معها البلد بأكمله، مستخدمةً بلاغيَّاتٍ إنشائيَّةً يعظِّمها الناس جهرا مُكْرَهين، ويسخر منها، ويهزأ بها الجميع سِرًّا".

وتداول السوريون عشرات النكت التي نالت من نظام الأسد، ومنه هو شخصيًّا، مع العلم أن الإبلاغ عن شخص ينكِّت على "الرئيس القائد" كان تهمةً خطيرة في سوريا وقتها، وكانت السجون والمعتقلات تمتلئ بالمئات ممَّن كُلُّ تُهْمَتِهم هي "إهانة القائد"، وقد يقضي الواحد منهم ١٥ سنة مسجونًا في تهمة كهذه، يجري خلالها تعذيبه ليل نهار بأبشع أساليب القرون الوسطى.

يقول فائز ناصر الدين: "في الوقت الذي يصبح به التعبير عن الرأي بمثابة المجازفة بالحياة، لا يُعدم المواطن العربي عمومًا الوسيلة الفعَّالة لتمرير انتقاداته الحادة لما يدور حوله من مشاكل سياسية واقتصادية، بعد أن سُدَّت في وجهه جميع وسائل التعبير الأخرى التي تزهو بها الدساتير، حيث يغدو الإعلام مجرد وسيلة للتحميد والتمجيد تارة، وللرقص والغناء تارة أخرى. لذلك، وخوفًا من البطش وردَّة الفعل؛ يلجأ بعض الناس إلى التنفيس عن أنفسهم عن طريق تبادل النُّكَتِ التي تتَّسِم بالتهكُّم على قاعدة: المُضحك المُبكي".

ولم يعدم السوريُّون حيلةً، فكانوا يستوردون النكت من دول أوروبا

الشرقية الواقعة تحت طائلة الحكم الشيوعي، وكلنا في الهم شرقيون، إذا ما جفَّ نَبْعُ النكتة المصرية مؤقَّتًا.

قرأ مواطن سوري في جريدة أن موظَّفًا إنجليزيًّا اعترض بطريقة غريبة على قِلَّةِ مُرَتَّبِه في ظل ارتفاع الأسعار المستمر، بأن ذهب إلى مقر رئاسة الوزراء "١٠ داوننج ستريت" في قلب لندن، وراح يأكل العشب والحشائش في الحديقة كأنه خروف يرعى. وحاول الحرَّاس مَنْعَهُ، فأحدث الرجل ضجَّةً هائلة لِلَفْتِ الأنظار، وانتشر الخبر، وتعاطفت معه مارجريت تاتشر، رئيسة الوزراء البريطانية وقتها، وأمرت بمضاعفة مرتَّبه.

ولم يُكَذِّبْ السوريُّ خبرًا، ذهب فورًا إلى حديقة مجلس الوزراء وراح يأكل الحشائش بحماس شديد. ولمَّا حاول الحراس مَنْعَهُ وإخراجَه بالقوَّة، سمع رئيس الوزراء صياحه، فأمر باستدعائه، فقال الرجل إن مُرَتَّبَه لا يكاد يَسُدُّ رَمَقَهُ ورَمَقَ أطفاله، فوعده رئيس الوزراء خيرًا. وفي الصباح صدر هذا التعميم الوزاري: على مؤسَّسات الدولة كافة السماح للمواطن العربي السوري بالرَّعْيِ في جميع حدائق القُطْر!

وهذه نكتة أخرى من أصل مصري صميم، غير أن من عثر على "المصباح السحري" في سوريا، تلك المرة، هو محمود الزعبي رئيس الوزراء الأسبق، الذي طلب من الجنِّيِّ أن يشيِّدَ له سورًا يحيط بسوريا ويقيها شر الأعداء، قال العفريت: ما في إسمنت بالسوق، والحديد صار أندر من الزئبق الأحمر، دخيلك تختار شي سهل غير هيك، قال الزعبي: طيب بدِّي أنظَّف سوريا من الفساد، فقال الجني: اعطيني مقاسات ها السور!

كما طالت النكت حزب "البعث" أيضًا، الذي كان يرفع شعارات اشتراكية

مزيَّفةً، وتحكمه مجموعةٌ من أصحاب المصالح الذي رأوا حين مات حافظ الأسد -أخيرًا- أن من مصلحتهم تنصيب ابنه "بشار" رئيسًا من بعده.

وكان أصحاب المحلات يسمُّونها باسم "البعث"؛ تَزَلُّفًا إلى السلطة، فترى في شوارع المدن السورية "حلواني البعث" و"فكهاني البعث" و"ساعاتي البعث". وأراد موظَّفٌ عائد إلى منزله أن يشتري دجاجتين، فعثر على مطعم اسمه "دجاج البعث"، فلمَّا دخل قال لصاحب المطعم: "بِدِّي رفيقين مقليَّيْن"!

وفي عهد الرئيس الابن، استعان السوريون بِنُكْتَةٍ مصرية أخرى قيلت ذات يوم في مبارك وولده "جمال". دخل بشار الأسد ليستحمَّ في حمام "نور الدين" العمومي الشهير في منطقة دمشق القديمة، وحين حان وقت دفع الحساب طلب منه صاحب الحمام ١٠ آلاف ليرة، استكثر "بشار" المبلغ وقال للحمَّامْجي "خادم الحمام" كنتوا بتاخدوا من بابا ١٠٠ ليرة بس، ليه بِدْكُنْ مني ١٠ آلاف؟

رد "الحمامّجي": سيدنا، أبوك كان وسخ، وانت وسخ ابن وسخ!

سمكة عبد الناصر تسبح في الفرات

يورد بوعلي ياسين هذه النكتة العراقية، دون الإشارة إلى أنها مصرية الأصل قيلت في "عبد الناصر": اصطاد أحدهم سمكة كبيرة من نهر الفرات، وأراد أن يأكلها مع صديق له. قال له: اذهب واجلب لنا زيتًا لنقليها، فقال له: الزيت مقطوع- اجلب سمنة، لا يوجد في السوق سمنة- اجلب وقودًا لنشويها- ماكو وقود "مفيش وقود". فغضب الرجل ورمى السمكة في النهر، وما إن نزلت في الماء حتى أخذت تصيح بأعلى صوتها: يعيش فخامة الرئيس محمد حسن البَكْر!

وحكى الرئيس العراقي الأسبق جلال طالباني للصحافة نكتةً قيلت فيه هو نفسه، تبدو مصريَّةَ الأصل، وكان بطلها الرئيس السادات، وهي نكتة "الغُرزة" الواردة في مقدمة الكتاب.

قال طالباني -الذي كان مشهورًا بظُرْفِه- إنه رأى ذات ليلة وهو في موكبه رجلًا جالسًا على كورنيش نهر "دجلة" لوحده يشرب خمرة العَرَق، فما كان منه إلا أن ترجَّل من سيارته وسار بلا حُرَّاسٍ، وحيَّا الرجل، فرحب به هذا بوجه بشوش وشاركه شرابه.

وبعد أول "بق" من الزجاجة، ضربت نسمة من دجلة الرئيس فسرح في ذكرياته، ولم ينتبه إلا والرجل يقول له مبتسمًا: نوَّرْت... نتشرَّف بسيدنا؟ رد: أنا جلال طالباني رئيس الجمهورية العراقية، فخطف الرجل منه زجاجة العَرَقِ قائلًا: يكفي يمعوَّد، بُقْ واحد صرت رئيس الجمهورية، بُقِّين راح تدِّعي إنك رسول من الله!

وبقليل من الاستقصاء نتبيَّن أن النكتة الأخيرة، ومن قبلها نكتة السادات، مأخوذتان عن طرفة قديمة تعود إلى العصر العباسي، أوردها ابن عبد ربه الأندلسي في كتابه "العقد الفريد"، وجمعها شهاب الدين الأبشيهي صاحب "المستطرف".

يُروى أن الخليفة أبا عبد الله المهدي، ثالث الخلفاء العباسيين، خرج يومًا للصيد فضلَّ طريقه من حاشيته في بادية العراق، ووجد خيمةً لأعرابيٍّ فدخلها، وقال له: يا أعرابي، أصلحك الله، هل مِنْ قِرًى؟ (أي: هل مِن ضِيافَة؟)، فأخرج له الأعرابيُّ قُرْصَ شعير، فأكله المهدي، ثم أتاه بإناء من حليب الماعز فشربه، ثم أخرج له ركوة نبيذ (إناء صغير) فسقاه.

فلمَّا شرب الخليفةُ كوبَ النبيذ قال للأعرابي: أتدري من أنا؟ قال: لا، قال المهدي: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصَّة، ردَّ الرجل: بارك الله لك في موضعك. ثم سقاه كوبًا آخر، فقال الخليفة: يا أعرابي، أتدري من أنا؟ أجاب: زعمت أنك من خواصِّ خَدَمِ أمير المؤمنين، قال المهدي: لا، بل أنا من قُوَّاد أمير المؤمنين، ردَّ الرجل: رَحُبَتْ بلادُكَ ونِلْتَ مُرادَكَ. ثم سقاه ثالثًا، فلمَّا فرغ قال: يا أعرابيُّ، أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من قُوَّاد أمير المؤمنين، قال الخليفة: لا، بل أنا أمير المؤمنين. فاختطف الأعرابيُّ منه الرَكْوَةَ وألقى بها قائلًا: إليك عنِّي، فو اللهِ لو شَرِبْتَ الرابعةَ لَزَعَمْتَ أنَّكَ رسولُ الله!

وعن النكتة العراقية أيام صدام حسين، قال طلعت ميشو: "كانت النكتة السياسية في عصر صدام وجهًا من أوجه المعارضة المبطَّنَة بأسلوب أدبي أو سوقي، وكلاهما ساخران ومؤلمان ومؤثِّران، وكانت النكت تشتدُّ شراسة كلما ضاقت مساحة التعبير. ولقد أدَّت النكتةُ السياسية دورها في إزعاج الحاكم

وإحراج موقفه وإخراجه عن أطواره أحيانًا. والظاهر أن النكتة كانت بالنسبة لصدام حسين كابوسًا مزعجًا، بحيث راح يعدم الكثيرين ويقصُّ ألسنة البعض الآخر عَلَنًا أمام الناس، وأصبح حكم الإعدام يشمل المعارض والثائر ومُروِّجَ النكتة على السواء. وهذا تأكيد على أن النكتة لا تقلُّ تدميرًا بالنسبة للحاكم عن الثورة والعصيان".

وفي عصر "صدام"، قالت المعلِّمة للتلاميذ في روضة أطفال: أعزائي الصغار، العراق هو جنة الله في الأرض، العراق غَنِيٌّ بالمأكل الطيِّب والماء العذب الفرات وخيرات النفط، و"بابا صدام" ما قصَّر في شي، بيعطي لأطفال العراق كل يوم حلوى وجيلاتي ونستلة وجوكليت.

وفجأة سمعت المعلمة طفلةً تبكي في آخر الصف، فسألتها: إيش فيكي "صبا" ليش تبكين حبيبتي؟ قالت "صبا": الله يخلِّيكي "ست عفيفة" ويطوِّل عمرك... بِدِّي أروح ع العراق!

ودخل "صدام" نفسه مع حرَّاسه إلى مكتب وكيل سيارات "مرسيدس"، وانتقى إحدى السيارات المعروضة، وعندما أراد دفع المبلغ رفض صاحب المكتب -مجاملةً- قبض الثمن، وحَلَفَ يمينًا بأن السيارة هدية منه للسيد الرئيس. وهنا قال له صدام بأنه سيدفع له دولارًا واحدًا كـ "رمز" لشراء السيارة، وأعطاه ورقة من فئة المئة دولار. ولكن، لم يكن مع الرجل "فكَّة" لإعادة باقي المبلغ، هنا قال صدام: ما يخالف.. اعطينا بالباقي ٩٩ سيارة!

كوميديان حرب

بلغ من خطورة النكت أن "مجلس قيادة الثورة" الحاكم في العراق، أصدر في نوفمبر ١٩٨٦ قرارًا نَصَّ على أن "يُعاقَب بالسجن المؤبَّد ومصادَرة الأموال المنقولة وغير المنقولة، مَن أهان بإحدى طرق العلانية رئيسَ الجمهورية، أو من يقوم مقامه، أو أيًّا من أعضاء مجلس قيادة الثورة، أو حزب البعث. وتكون العقوبةُ الإعدامَ إذا كانت الإهانةُ بشكلٍ سافِرٍ، ويُقْصَدُ بها إثارة الرأي العام ضد السلطة".

ورغم ذلك، كانت "حلة" ابنة صدام الصغرى ضعيفة في مادة التاريخ، وذكر له بعض حُرَّاسه اسم مدرس تاريخ شاطر، فقال لهم "جيبوه".

وبعد أسبوع تذكَّر صدام المدرِّسَ، فسأل الحراس: عَجل وين الأستاذ اللي قلتلكم جيبوه؟، قال الضابط: لا تشغل بالك به سيدي الرئيس... جبناه واعترف وأعدمناه!

وتداول المصريون العاملون في العراق، وقد وصل عددهم في وقت ما إلى ٨ مليون شخص، نكتةً تقول إن رجلًا من سُكَّان بغداد عثر في إحدى الخرائب القديمة على مصباح صَدِئٍ، فلمَّا شرع في تنظيفه خرج منه جِنِّيٌّ مَهولٌ أخبره أنه خادم المصباح، وسأله: شُبِّيك لُبِّيك... تطلب إيه؟

قال له: عايزك تخلِّصني من كل المصريين اللي موجودين في العراق وترجَّعْهُم بلدهم فورًا.

رد الجني: ليه كده بس... ده إحنا بناكل عيش!

وعشيَّةَ الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣، دعا جورج بوش "الابن" حليفَه توني بلير رئيس وزراء بريطانيا لمباحثات في واشنطن، ثم عقد الاثنان

مؤتمرًا صحفيًّا عالميًّا، سألهما أحد الصحفيين: ما أهم القرارات التي خرج بها الاجتماع، فقال "بوش": قرَّرنا أن نقتل ٢٠ مليون عربي وطبيب أسنان واحد.

اندهش الحاضرون: ولماذا طبيب أسنان واحد؟

ابتسم "بوش" ومال على أذن "بلير" قائلًا: ألم أقل لك إن أحدًا لن يهتمَّ بموت ٢٠ مليون عربي!

وكان صدام حسين يجلس في مقر قيادة الجيش العراقي بعد أن احتلَّ الأمريكان ثلاثةَ أرباع العراق، ودخل عليه محمد سعيد الصحَّاف وزير الإعلام، وهو يشير له بإصبعَيْه السَّبَّابة والوُسْطَى، فسأله "صدام": هل انتصرنا بهذه السرعة على العلوج الأمريكيين؟ رد الصحاف: لا، لم يبق من الجيش إلا أنا وأنت!

ومن غرائب الأمور أن الأمريكيين لمَّا احتلُّوا بغداد، ألقوا القبض على كل قادة نظام صدام حسين، وطاردوا الهاربين منهم، باستثناء "الصحَّاف" الذي كان حديثَ الفضائيات ونُكْتَةَ الموسم، وهو يردِّد قبل الغزو تهديداتٍ عنتريَّةً كوميديَّةً للأمريكان، ويصفهم بلفظ معجمي غريب هو "العلوج"، ومفرده "علج"، أي الشخص الأعجمي الذي فيه غلظة وجلافة.

وحينما سألت صديقًا عراقيًّا عن السبب في عدم المساس بـ"الصحاف"، الذي ظهر بعد الغزو شيخًا حزينًا أشيبَ تمامًا، فلم يَعُدْ يصبغ شَعْرَهُ كما كان يفعل أيام السلطة، أجاب الصديق أن: الأمريكيين تركوا الصحاف طليقًا نكايةً في الرأي العام العربي، خصوصًا بعد أن صار له شعبية جارفة في المنطقة، فتركوه استصغارًا لشأنه، ولأنه لم يكن أكثر من "كوميديان حرب".

وبعد الغزو الأمريكي، وهروب "صدام" متخفِّيًا إلى بادية العراق، أراد أن

يشتري خبزًا من امرأة عجوز في أحد الأسواق، وبعد أن حصل على الخبز أراد أن يدفع ثمنه، فرفضت المرأة أن تأخذ منه نقودًا قائلة: لا يصح، أنت ما زلت رئيس الجمهورية، فاندهش صدام وسألها: كيف عرفتني؟ قالت: أنا عِزَّت إبراهيم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة يا سيدي الرئيس!

وهذه نكتة أخرى مصرية بامتياز، سبق تداولها في مصر بصيغة مختلفة، وصاغها العراقيون هكذا: في لقاء جمع بين الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما ونوري المالكي رئيس الوزراء العراقي، قال أوباما للمالكي: نحن هنا في أمريكا نعطي الموظف باليمين راتبًا قدره ١٠ آلاف دولار، ثم نأخذ منه بالشمال ٦ آلاف دولار ضرائب وفواتير وقروضًا وتأمينات، ولا نسأله ماذا يفعل بباقي الراتب، إنه حُرٌّ.

أجاب المالكي: نحن في العراق نظامنا أحسن بكثير، فنحن نعطي الموظف ٢٠٠ دينار راتبًا، ونأخذ منه ١٠٠٠ دينار ضرائب ورسومًا وتأمينات، ولا نسأله من أين يأتي بالباقي، إنه حُرٌّ!

وانتشرت في فلسطين المحتلَّة نكتة مصرية قيلت في السادات، استهدفت الزعيم الراحل ياسر عرفات، الذي كان مشهورًا بدبلوماسيته الشديدة.

ذهب عرفات لأداء فريضة الحج، وبعدما أدَّى الشعائر ووصل لمرحلة رمي الجمرات، أمسك السبعة أحجار في يده ورمى، الجمرة الأولى، الثانية، الثالثة، لما وصل إلى السادسة، ثم وضع الحجر السابع في جيبه، فنبَّهه واحد من مساعديه واقف بجانبه: يا زعيم الجمرة السابعة لسَّه ما رميتها، قال عرفات: بافكَّر إنه بِدّنا ما بنقطع كل الخيوط مع الشيطان.. بلَّش نحتاجه يوم!

واستعار الأردنيون عبارة الشيخ "المحلاوي" الشهيرة عن السادات التي تداولها المصريون زَمَنًا، للسخرية من ياسر عرفات بعد توقيع "اتفاق أوسلو" للسلام مع إسرائيل. فيسأل أحدهم الآخر: شو الفرق بين الّلي فتح "القدس" والّلي حرَّر "رام الله"؟ يرد صاحبه: اللي فتح القدس إمام عادل، والّلي حرّر رام الله عادل إمام!

مصر والجزائر وجهان لـ "نكتة واحدة"

كان بين عبد الناصر وصديقه الرئيس الجزائري الراحل هوَّاري بومدين علاقة صداقة وثيقة، وكانا يعتنقان نفس الأفكار السياسية تقريبًا، وكلاهما يتمتَّع بشخصية كاريزمية قوية وحضور جماهيري، وهناك أوجه شبه لا حصر لها بين الرجلين. لذلك كان الجزائريون المقيمون في القاهرة أو زُوَّارها في فترة الستينيات، يجمعون كثيرًا من النُّكَت السياسية التي قيلت في عبد الناصر، ولا يكلِّفهم الأمر بعد عودتهم إلى بلادهم إلَّا إعادة صياغة النكتة باللهجة الجزائرية، ووضع اسم "بومدين" بدلًا منه.

ونقلًا عن دبلوماسيٍّ جزائري يعمل في سفارة بلاده لدى القاهرة، فقد ربطت النكتة بعد وفاة كل من عبد الناصر وبومدين، بين وصول السادات إلى الحكم في مصر، وتولِّي الرئيس الأسبق الشاذلي بن جديد رئاسة الجزائر.

والغريب أنه كان بين الرئيسين -هذه المرة أيضًا- الكثير من أوجه الشبه، وصلت حَدَّ التطابُق على المستويين: الشخصي والسياسي معًا؛ فقد ورث كلٌّ من السادات والشاذلي تَرِكَةً اشتراكية ثقيلة من سلفه، واتَّبع كلاهما سياسة "الانفتاح الاقتصادي" على الغرب؛ لضرب هذا التراث الاشتراكي أوَّلًا، ثم فرض واقع سياسي جديد. وكأننا في فيلم واحد تدور أحداثه نفسها في مصر والجزائر، تِباعًا.

وبينما سخر المصريون من جهل السادات بقولهم "العلم نور... والجهل أنور"، حكى الجزائريون أن ابن الشاذلي عاد من المدرسة الابتدائية يومًا، وأرد أن يمثِّل دور المدرِّس فسأل أباه: مَن هو مخترع التلغراف؟، ولم يعرف

الرئيس الإجابة، فقال له الطفل ببساطة: أنت أُمِّي! فما كان من الشاذلي إلا أن صفع الولد، ظَنًّا أنه لا يفرق بينه وبين أُمِّه!

ويلاحظ الكاتب عمَّار يزلي أن "تجربة مصر الناصرية تتشابه مع تجربة الجزائر البومدينية، وتجربة الانفتاح في عهد السادات، هي نفسها تقريبًا تجربة الانفتاح في عهد الشاذلي. ومعنى ذلك أن قوى المعارضة الشعبية لنهج التجربتين الجديدتين في مصر والجزائر، كانت وراء إنتاج النكتة السياسية عن جهل وأُمِّيَّة الرئيسَيْن: "السادات والشاذلي" وسذاجتهما السياسية والثقافية. وهو ما يعني أن النكتة السياسية لا تُبْتَدَعُ دائمًا، بل إنها في معظم الأحيان تُحَوَّر وتخضع لعملية هيكلة، وهي كذلك سريعة الانتقال وسريعة التقمُّص، إنها تلتصق بشخصية ما كما لو أنها أُنتجت عنه لوحده، مع أنها قيلت في شخصية أخرى".

ومن النكت التي تداولها الجزائريون خلال حكم الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، الذي حكم البلاد لمدة ٢٠ سنة، حتى كتابة هذه السطور، أن تونس أرادت بعد "ثورة الياسمين" تنظيم انتخابات رئاسية محايدة، فاستعانت بلجنة حكومية من القضاة الجزائريين لمراقبة عمليات التصويت حتى تجري في شفافية تامة. وبعد إجراء الانتخابات، وفرز الأصوات، تبين أن "بوتفليقة" هو الفائز برئاسة تونس!

وبحكم الجيرة، ووجود ملايين العمَّال المصريين هناك، ظهرت أولى النِّكات السياسية في ليبيا خلال فترة الثمانينيات من القرن الماضي؛ لتستهدف مجلس قيادة "ثورة الفاتح من سبتمبر" بقيادة العقيد معمر القذافي الذي حكم البلد بدءًا من سنة ١٩٦٩ وحتى عام ٢٠١١، لمدة ٤٢ سنة متَّصِلَة، وهو رقم قياسي

عالمي لم يُسَجَّل منذ عهد رمسيس الثاني.

والغريب أن القذافي الذي أصيب بلحسة مبكِّرة في مُخِّه حين قال له عبد الناصر "إنني أرى فيك شبابي"، ومنحه لقب "أمين القومية العربية" مجَّانًا، ارتكب نفس الأخطاء التي وقع فيها مُعَلِّمُه، فكانت المسافة بين ما ورد من نوايا نظرية طيبة في "الكتاب الأخضر" الشهير، وبين ما عاشه الليبيون فعليًّا من قَهْرٍ وديكتاتورية ونزعات جنونية لزعيمهم، مثل الفرق الذي خبره عبد الناصر بين "الميثاق الوطني" والسجاير الكليوباترا الرديئة!

وتشير د. الورفلي إلى أن "هناك أكثر من سبب يمكن أن نفسر به حالة الاغتراب السياسي التي كانت سائدة في ليبيا تحت حكم القذافي، ومن ثم التحوُّل في المزاج الليبي المتحفِّظ، وجنوحه نحو تعاطي النكتة السياسية. وعلى رأس هذه الأسباب: تضاعُف الهوَّة بين سيل الوعود التي جاءت بها ثورة (الفاتح من سبتمبر) في بدايتها، والواقع المتردِّي الذي عايشه الفرد في ليبيا خلال ربع القرن الأخير من عمر النظام. ولا بُدَّ من أن نذكر أيضًا أن الجيل الذي استخدم النكتة السياسية جيل نشأ وشَبَّ في بيئةِ تماسٍّ مباشر مع الجار المصري؛ رائد النكتة في المنطقة بلا منازع. هذا التماسُّ جاء نتيجة تدفق العمالة المصرية، والإنتاج الفني المصري من سينما وأعمال فنية ومطبوعات، ثم المصاهرة، حيث تُعَدُّ نسبة المواطنين الليبيين لأمهات مصريات بمئات الآلاف، فهو جيل تأثَّر باللهجة المصرية، وتشرَّب الروح المصرية، واعتنق النكتة المصرية، وتنبَّه أخيرًا لجدية النكتة وأهميتها كسلاح في وجه الخوف والاضطهاد والقمع، فاستخدمها".

وبناء على ذلك، أخذ الليبيون -ببساطة- النُّكَتَ المصرية التي كان أبطالها

في وقت ما كلٌّ من جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وشمس بدران، ووضعوا بدل هذه الأسماء شخصيات محلية، هي معمر القذافي وعبد السلام جلود وبوبكر يونس جابر وغيرهم من قادة الثورة الليبية.

وننقل عن د. الورفلي، تحسُّبًا لأي اتهام بإهانة الإخوة الليبيين، قولها: "في فجر ميلاد النكتة السياسية الليبية، راجت نكتة حولها تقول إن الرئيس السادات عندما علم أن الليبيين صاروا يطلقون النكتة السياسية، قال: يبقوا جاعوا، ولاد الكلب"!

وفي التسعينيات، حينما اتَّهمَت أمريكا نظامَ القذافي بامتلاك أسلحة دمار شامل نووية وكيماوية، وكان الرجل من بلاهته يعطي للرأي العام العالمي انطباعًا بذلك، وهو لا يملك أي شيء، انتشرت نكتة تقول إن فريقًا من المحقِّقين الدوليين التابعين للأمم المتحدة زار ليبيا في بعثة لتقصِّي الحقائق، وقام بتفتيش دقيق لكل المنشآت الصناعية المشتبه في احتوائها على أسلحة دمار شامل. وعندما عاد الفريق إلى مقر المنظمة في نيويورك، قدَّم تقريرًا إلى الأمين العام للأمم المتحدة مُكَوَّنًا من جملة واحدة "لم نجد أي أسلحة، ولكن وجدنا الدمار الشامل"!

"معونة أمريكية" صغيرة

كان السوداني "ود حسون" زميل دراسة قديمًا للرئيس الأمريكي السابق بارك أوباما في كينيا، وبعث "ود حسون" خطابًا إلى البيت الأبيض شرح فيه ظروفه الصعبة، واختتمه قائلًا: حبيبنا يا أوباما، أخوك مفلِّس شديد.. يا ريت يا زول تشوفوا بي حاجة.

وبعد شهر، أرسل أوباما ١٠ آلاف دولار لزميله القديم مع أحد المسؤولين السودانيين كان في زيارة لواشنطن. ولمَّا رجع المسؤول اتَّصل بوالي مديرية الخرطوم قائلًا: عندك مواطن اتواصل مع أوباما، ورسِّل معاي له ٥ آلاف دولار، تعالى خدهم وصِّلهم له.

اتصل الوالي برئيس الحي قائلًا: عندكم زول اتصل على أوباما، ورسِّل له ٢٠٠٠ دولار، عايزك توصلهم له. فخاطب رئيس الحي بدوره مسؤول اللجنة الشعبية: عندك مواطن تبرَّع له أوباما بـ ١٠٠٠ دولار.

وحينما حضر "ود حسون" أخيرًا أمام اللجنة الشعبية؛ سأله المسؤول: إنت اللي طلب من أوباما دولارات؟ رد: أيوا.

قال له: فضحتنا الله يفضحك... أهو الرئيس أوباما بيقولَّك الله كريم!

والنكتة الأخيرة هي نسخة طبق الأصل من نكتة مصرية انتشرت أيام السادات، وكان بطلها الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر، الذي كان معروفًا بميوله الإنسانية والخيرية، مع تعديل بسيط في نهاية النكتة بالعامية المصرية: كارتر بيقولَّك الله يسهِّل لك.

وأضرب عُمَّال المصانع السودانيون ورفضوا الذهاب إلى أعمالهم، فاجتمع بهم الرئيس عمر البشير لبحث شكواهم، قالوا: "الزول منا بيمشي السوق

ما بيلاقي حاجة، زيت ما في، سكر ما في، رز ما في، قال لهم الرئيس: وما هي مطالبكم؟ قالوا: زيادة الأجور، قال: وإيش تعملوا بيها والسوق كله ما في حاجة!

وهذه النكتة السودانية منسوجة أيضًا على منوال نكتة مصرية انتشرت بعد "انتفاضة الخبز" في ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧، تقول إن السادات دخل متخفِّيًا أحد المجمعات الاستهلاكية، وسأل عن الفراخ فلم يجد، ثم عن الزيت فلم يجد، وعن السكر والصابون والشاي فلم، فقال له الموظف: فيه أزمة يا أفندي، قال الرئيس: طيب نفسي أعرف الناس اللي بتطالب بزيادة الأجور هتشتري بيها إيه؟

وأخيرًا، وهذه هي النكتة "غير المصرية" الوحيدة المتداوَلة في اليمن، يُحْكَى أن الرئيس علي سالم البيض، آخر رئيس لليمن الجنوبي قبل "حرب الوحدة" عام ١٩٩٤، سُئِل عن رأيه في فريضة الصيام، فقال: لولا الوضوء لكُنَّا متنا من العطش!

"إن إصلاح مساوئ نظم الحكم سَيَرُدُّ -بسهولة- لهذا الشعب كُلَّ الفضائل التي فقدها، بل التي يظنُّ هو نَفْسُه أنه فَقَدَها، وهي كامِنَةٌ فيه. كما سيوقظ فيه كُلَّ مشاعر النُّبْلِ والهِمَّةِ والعَظَمَة التي خنقتها -إلى حينٍ- أنظمةٌ شيطانيَّةٌ حَكَمَتْهُ".

من كتاب "وصف مصر" لعلماء الحملة الفرنسية

شكر خاص

يدين المؤلف بشكر وعرفان مستحق لكل من أسهم في أن يرى هذا الكتاب النور، ومنهم المهندس أمين جرجس صادق، رحمه الله، والأساتذة: بلال فضل وعمر طاهر وعمر عبد الفتاح وعاطف مظهر وشريف عبد الحميد وطه محمد طه "طه الباشا" والحاج خالد أبو غريّب، وآخرون لا يتسع المجال لشكرهم. والحمد لله رب العالمين.

مصادر:

كتب

- موريال ميراك- فايسباخ: "مهووسون في السلطة"، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٢.

- جيمس سكوت: "المقاومة بالحيلة: كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم"، ترجمة إبراهيم العريس ومخايل خوري، دار الساقي، بيروت، بدون تاريخ.

- د. شاكر عبدالحميد ود. معتز عبدالله ود. سيد عشماوي: "الفكاهة وآليات النقد الاجتماعي"، مركز البحوث والدارسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة ٢٠٠٤.

- روبير سوليه: "السادات"، ترجمة أدونيس سالم، دار نوفل، بيروت، ٢٠١٥.

- د. عمر هارون الخليفة: "علم النفس والمخابرات"، دار ديبونو، عمان، الأردن، الطبعة الثانية ٢٠١٠.

- داميان بارنياكوف: "الفكاهة البلغارية"، ترجمة حسين راجي، دار الثقافة، دمشق ١٩٨٢.

- نصر الدين البحرة: "الضحك تاريخ وفن"، كتاب مجلة "دبي الثقافية"، الإصدار ١٢٢ الطبعة الأولى مارس ٢٠١٥.

- شهاب الدين الأبشيهي: "المستطرف من كل فن مستظرف"، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٨٧.

- الدكتور "ع. ع" (عبد الرحمن عبدالله الشيخ): "تراث العبيد في حكم مصر المعاصرة- دراسة في علم الاجتماع التاريخي"، المكتب العربي للمعارف، القاهرة ١٩٩٥.

- محمد حسنين هيكل: "مبارك وزمانه، ماذا جرى في مصر ولها؟"، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة ٢٠٠٣.

- د. مصطفى حجازي: "التخلُّف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة التاسعة ٢٠٠٥.

- جيلز كيبل: "النبي والفرعون"، ترجمة أحمد خضر، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٨٨.

- سامي الزقم: "أزمة الثقة وعقدة الخوف داخل المجتمع المصري"، دار الكلمة للنشر والتوزيع، المنصورة ٢٠٠٩.

- بوعلي ياسين: "بيان الحد بين الهزل والجد- دراسة في أدب النكتة"، دار المدى، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٦.

- عادل حمودة: "النكتة السياسية: كيف يسخر المصريون من حكامهم"، دار الفرسان، القاهرة ١٩٩٩.

- نزيه الأيوبي: "تضخيم الدولة العربية: السياسة والمجتمع في الشرق الأوسط"، ترجمة أمجد حسين، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠١٠.

- د. سامي علي: "الحشيش في مصر: مقال في علم الإنسان التحليلي"-

فصل من كتاب "التحليل النفسي والثقافة العربية الإسلامية"، مجموعة مؤلفين، دار بدايات، دمشق ٢٠٠٨).

- ب. ج. فاتكيوتس: "جمال عبد الناصر وجيله"، ترجمة سيد زهران، دار التضامن، بيروت ١٩٩٢.

- جليبرت سينويه: "البكباشي والملك الطفل.. مذكرات من مصر"، ترجمة محمد التهامي العماري، منشورات الجمل، بيروت- بغداد ٢٠١٥.

- د. هشام جابر: "النكتة السياسية عند العرب.. بين السخرية البريئة والحرب النفسية"، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ٢٠٠٩.

- د. محمد محمد داود: "اللغة والقوة والحروب اللغوية"، دار نهضة مصر، القاهرة ٢٠١٦.

- د. عمرو عبد السميع: "بعض من ذكريات"، سما للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٥.

- ضياء الدين بيبرس: "الأسرار الشخصية لجمال عبد الناصر"، مكتبة مدبولي، القاهرة، (د. ت).

- ليزا وادين: "السيطرة الغامضة: السياسة والخطاب والرموز في سوريا المعاصرة"، ترجمة نجيب الغضبان، منشورات رياض الريس، بيروت ٢٠١٠.

- د. محمود جامع: "عرفت السادات"، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ديسمبر ١٩٩٨.

- أنيس منصور: "عبد الناصر المفْتَرَى عليه والمفتري علينا"، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، (د. ت).

- د. حسين مؤنس: "باشوات وسوبر باشوات"، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٨.

- صلاح عيسى: "مثقفون وعسكر"، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٦.

- يوسف إدريس: "البحث عن السادات"، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا ١٩٨٣.

- رجاء النقاش: "صفحات من مذكرات نجيب محفوظ"، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١١.

- محمد الباز: "نُكَتُ السيد الرئيس"، دار كنوز، القاهرة، ٢٠٠٧.

- صلاح نصر: "الحرب النفسية.. معركة الكلمة والمعْتَقَد"، دار القاهرة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦.

- الدكتور شوقي ضيف: "الفكاهة في مصر"، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، (د. ت).

- محمود فوزي: "حُكَّام مصر: السادات"، مركز الراية للنشر والإعلام، القاهرة ١٩٩٧.

- د. حميدة مهدي سميسم: "الحرب النفسية"، الدار الثقافية للنشر، بغداد، الطبعة الأولى ٢٠٠٥.

- طارق المهدوي: "كوابيس جمهورية الخوف"، كتاب منشور على الإنترنت، موقع "الحوار المتمدن"- العدد: ٥٠٣٦ - ٦ يناير ٢٠١٦.

- د. جلال أمين: "وصف مصر في نهاية القرن العشرين"، دار الشروق، الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

- محمد مرشدي بركات: "السادات سيرة ومسيرة"، دار المعارف، القاهرة ٢٠١٣.

- عزمي بشارة: "الجيش والسياسة: إشكاليات نظرية ونماذج عربية"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت ٢٠١٧.

- منتصر جابر: "اضحك على الرئيس: كيف أسقط المصريون نظام الحكم بالنكت والتنكيت"، دار العين، القاهرة ٢٠١٤.

- سمير الجمل: "ثورة التحرير تضحك.. عبقرية المصريين"، كتاب الجمهورية، القاهرة ٢٠١١.

- عمرو موسى: "كتابيه"، دار الشروق، القاهرة ٢٠١٧.

دراسات ومقالات

- عادل إسكندر: "برامج السخرية والكوميديا في مصر بعد الثورة"، الملف المصري، مركز الدارسات السياسية والاستراتيجية، العدد ١١، يوليو ٢٠١٥.

- د. دينا مندور: "السخرية السياسية في أعقاب ثورة ٢٥ يناير: إعادة بناء مجال للتعبير المقاوم" بحث مقدم إلى مبادرة الإصلاح العربي، برنامج دعم الباحث العربي- الدورة الثانية، إبريل ٢٠١٦.

- أكرم القصاص: "التنكيت على مبارك مـن المنصة إلى السجن"، جريدة "اليوم السابع" عدد ٢١ أبريل ٢٠١١.

- د. مبروكة الورفلي: "الضحك في وجه الخوف: مفردات المقاومة السلبية في المجتمع الليبي". موقع "دراسات".

- د. الصادق المهدي: "الفكاهة ليست عبثًا"، كتاب منشور في صيغة "وورد" على الإنترنت، سبتمبر ٢٠٠٦.

- د. هاني صبحي العمد: "ملامح النكتة الشعبية في الأردن: ثقافة شعبية متحركة وفاعلة" بحث مقدم إلى قسم اللغة العربية في كلية الآداب بالجامعة، مجلة "دارسات" المجلد ٣٣ العدد ١- ٢٠٠٦.

- عمار علي حسن: "النكتة السياسية"، جريدة "الوطن" عدد ١٣-٠٢ - ٢٠١٤.

- فادي العبد الله: "ملاحظات سريعة عن شروط إمكان النكتة السياسية الآن: ضحكة الوعي"، مجلة "كلمن" عدد ٨ خريف ٢٠١٣.

- مجلة "روز اليوسف" عدد ٣٠ مارس ١٩٩٨، عدد خاص عن "التنكيت في مصر".

- محمد فتحي: "المصري ابن نكتة... عندما يسخر الشعب من الرئيس"، موقع "محيط".

- وليد بدران: "أبرز معارك الشيخ الساخر عبد الحميد كشك"، موقع "رصيف ٢٢".

- أحمد المسلماني: "الشيخ كشك... عبد الناصر والسادات"، جريدة "المصري اليوم"، عدد ٢- ٧- ٢٠٠٧.

- محمد الدسوقي رشدي: "الشيخ كشك آخر شيوخ السياسة... تحدَّى كلَّ رؤساء مصر ورفض أموال الخليج"، موقع "اليوم السابع".

- آية عودة: "في ذكرى ميلاده... أشهر قفشات الشيخ كشك"، موقع "فيتو".

- د. داليا فهمي: "النكتة السياسية رأي عام وسهام حادة"، موقع "مصرس".

- رياض الركابي: "النكتة السياسية في العراق تاريخ دموي حافل"، نسخة إلكترونية "بي دي إف" على الإنترنت.

- عمر يحيى أحمد: "النكتة السياسية وأثرها على الثورات الشعبية- الثورة المصرية دراسة حالة"، موقع "الحوار المتمدن".

- محمد محمود فايد: "النكتة: إبداع فني في كل زمان ومكان"، موقع "المجلة العربية".

- د. إيمان مهران: "النكتة السياسية في موروث التشكيل المصري.. رؤية تاريخية"، موقع "ثقافات".

- ابتسام تريسي: "النكتة السياسية: من الأسد إلى عبد الناصر"، موقع "الجزيرة نت".

- فائز ناصر الدين: "النكتة السياسية في سوريا: منبر من لا منبر له، موقع "صفحات سورية".

- د. شريف درويش اللبان: "الإعلام الساخر... السخرية في زمن الثورة"، موقع "المركز العربي للبحوث والدراسات".

- محمد علم الهدى: "عالم السخرية على الإنترنت من أيام سودا إلى أنا مش قادر أدِّيك"، موقع "زائد ١٨".

منشورات بتانة
٢٠١٩